مَقَالاتٌ تَمْهِيدِيَّةٌ

.....

ـ المَقَالَةُ الأُولَى :

.....

۞ ـ هَل مَاتَ زَمَنُ الشِّعْر ؟!!

فِى عَام ١٨٢١ م ؛ نَشَرَ النَّاقِدُ الإِنْجِلِيزِىُّ توماس لف بيكوك رَسَالَةً بِعُنْوَان : « عُصُورُ الشِّعْرِ الأَرْبَعَة » ؛ رَامَ مِن خِلالِهَا أَن يُثْبِتَ أَنَّ الفَنَّ الشِّعْرِىَّ سَيَتَلاشَى رُوَيْدَاً رُوَيْدَاً مَعَ تَقَدُّمِ الحَضَارَةِ المَادِيَّةِ ؛ وَأَنَّ الشِّعْرَ فِى القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَر ـ أَى فِى عَصْرِ المَادَّةِ وَالعَقْل ـ لا يُعَدُّ أَكْثَرَ مِن ظَاهِرَةٍ قَبِيحَةٍ سَخِيفَةٍ ؛ لا تَشِى إِلاَّ بِالعَبَثِيَّةِ وَاللامُبَالاة ؛ وَلا تَدْعُو لِسِوَى النُّفُورِ وَالضِّيقِ وَالاحْتِقَار ؛ إِذ لِكُلِّ عَصْرٍ مَظَاهِرُهُ وَأَفْكَارُهُ ؛ فَالشِّعْرُ مِن سِمَاتِ عُصُورٍ قَد خَلَت ؛ وَأَمَّا فِى هَذَا العَصْرِ فَلا مَكَانَ لِلشِّعْرِ وَلا لِلشُّعَرَاء .

.....

كَانَت هَذِهِ هِىَ دَعْوَةُ ذَلِكَ النَّاقِد ؛ وَقَبْلَ أَن يَكُونَ نَاقِدَاً أَدَبِيَّاً ؛ فَهُوَ رِوَائِىٌّ ؛ وَفِى ذَلِكَ مَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَن نَادَى بِفِكْرَة « زَمَنُ الرِّوَايَة » ؛ تِلْكَ الدَّعْوَةُ الَّتِى بَدَأَت فِى أَيَّامِهِ ؛ وَمَازَالَت تَجِدُ لَهَا أَنْصَارَاً إِلَى يَوْمِنَا هَذَا فِى الشَّرْقِ وَالغَرْبِ عَلَى السَّوَاء.

وَقَد تَصَدَّى الشَّاعِرُ الرُّومَانْسِىُّ الإِنْجِلِيزِىُّ الكَبِير بيرسى بيشى شيلى [١٧٩٢ ـ ١٨٢٢] لِلرَّدِّ عَلَى توماس بيكوك فِى رِسَالَةٍ لَهُ بِعُنْوَان « دِفَاعٌ عَنِ

الشِّعْر)) .

ثُمَّ جَاءَ الشَّاعِرُ وَالنَّاقِدُ الأَدَبِيُّ الفِيكْتُورِيُّ ماثيو أرنولد [١٨٢٢ ـ ١٨٨٨] ؛ فَنَاقَشَ هَذِهِ القَضِيَّةَ ؛ ثُمَّ انْتَهَى إِلَى أَنَّ الشِّعْرَ سَيَحُلُّ مَحِلَّ المُعْتَقَدَاتِ الدِّينِيَّةِ القَدِيمَة ؛ وَمِمَّا قَالَهُ :

((إِنَّ لِلشِّعْرِ مُسْتَقْبَلاً هَائِلاً ؛ لأَنَّ الإِنْسَانِيَّةَ سَتَجِدُ فِي الشِّعْرِ الجَدِيرِ بِهَذَا المُسْتَقْبَلِ مُسْتَقَرًّا لَهَا ؛ يَتَجَدَّدُ الاطْمِئْنَانُ إِلَيْهِ عَلَى مَرِّ الأَيَّام.

لَقَد بَدَأَت المُعْتَقَدَاتُ كُلُّهَا تَتَزَعْزَعُ ؛ وَأَخَذَ الشَّكُّ يَتَطَرَّقُ إِلَى المَذَاهِبِ الَّتِي كَانَ النَّاسُ يُجْمِعُونَ عَلَى صِحَّتِهَا كُلِّهَا ؛ كَمَا أَخَذَت التَّقَالِيدُ تُؤذِنُ بِالتَّدَاعِي وَالانْهِيَار ؛ حَتَّى الدِّين الَّذِي كَانَ يَعْتَمِدُ عَلَى الوَقَائِعِ المُفْتَرَضَةِ وَيَرْبِطُ بَيْنَ كُلِّ انْفِعَالاتِهِ ؛ خَانَتْهُ هَذِهِ الوَقَائِعُ ذَاتُهَا وَأَخَذَت تَتَخَلَّى عَنْهُ.

أَمَّا الشِّعْرُ ؛ فَإِنَّهُ يَقُومُ عَلَى المَعْنَى ؛ وَالمَعْنَى بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ.)) .

.....

كَانَ لِلنَّهْضَةِ الحَضَارِيَّةِ المَادِيَّةِ الرَّهِيبَة ؛ وَالَّتِي بَدَأَت مَعَ أَوَاخِرِ القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَر ؛ وَسَيْطَرَةِ مَظَاهِرِهَا عَلَى التَّفْكِيرِ الإِنْسَانِيِّ ؛ كَانَ لِهَذَا الأَمْرِ أَثَرُهُ الخَطِيرُ عَلَى القِيمِ الثَّقَافِيَّةِ وَالإِنْسَانِيَّةِ .

وَقَد كَانَ مِن نَتَائِجِ هَذَا التَّأْثِير ؛ أَن أَصْبَحَ الكَثِيرُونَ مِنَ المُثَقَّفِينَ يَنْظُرُونَ إِلَى الفَنِّ الشِّعْرِيِّ نَظْرَةَ سُخْرِيَةٍ وَامْتِعَاض ؛ فَاضْطَرَبَت نُفُوسُ الشُّعَرَاءِ اضْطِرَابًا شَدِيدًا ؛ وَخَاصَّةً فِي بِلادِ الإِنْجِلِيز ؛ لِكَوْنِهَا كَانَت أَكْثَرَ البِلادِ تَأَثُّرًا بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ ؛ إِذ كَانَت مَعْقِلَ الثَّوْرَةِ الصِّنَاعِيَّةِ آنَئِذٍ ؛ فَوَاجَهُوا هَذِهِ المِحْنَةَ الثَّقَافِيَّةِ

بِكَثِيرٍ مِنَ الحُجَجِ المَنْطِقِيَّةِ السَّدِيدَةِ المُفْحِمَة ؛ وَالَّتِي كَانَ مِن أَبْرَزِهَا وَأَقْوَاهَا : القَوْلُ بِأَنَّ القِيمَ المَادِيَّةَ الَّتِي تَسَلَّطَت عَلَى عُقُولِ أَبْنَاءِ هَذِا العَصْر ؛ تَفْرِضُ عَلَى اتْبَاعِهَا التَّخَلِّي - إِرَادِيَّاً أَو لا شُعُورِيَّاً - عَن المَشَاعِرِ الإِنْسَانِيَّةِ النَّبِيلَة ؛ كَالحُبِّ وَالحُزْنِ وَالأَلَم ؛ وَأَصْبَحَ عَلَى المَرْءِ الَّذِي يُسْلِمُ قِيَادَهُ لِهَذِهِ القِيَمِ الشَّوْهَاء ؛ وَالَّتِي مِن شَأْنِهَا أَن يَذُوبَ الإِنْسَانُ فِي تَيَّارِ السَّعْي اللاهِثِ خَلْفَ المَالِ وَالثَّرْوَةِ وَأَسْبَابِ امْتِلاكِ مَظَاهِرِ المَادَّةِ وَالسُّلْطَة ؛ وَأَن يَفْقِدَ الكَثِيرَ مِن سِمَاتِ ذَاتِهِ الاسْتِقْلالِيَّةِ وَشَخْصِيَّتِهِ الفَرْدِيَّة ؛ وَأَن يُعْرِضَ عَن حَاجَاتِهِ الرُّوحِيَّةِ ؛ وَالَّتِي هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا عِلَّةُ الوُجُودِ الإِنْسَانِيِّ فِي هَذَا العَالَم.

ـ المَقَالَةُ الثَّانِيَة :

.....

۞ ـ الشِّعْرُ العَرَبِىُّ فِى صُورَتِهِ التُّرَاثِيَّة

هَل بِمُكْنَتِهِ أَن يُعَبِّرَ عَن الخَلَجَاتِ النَّفْسِيَّةِ
وَالنَّوَازِعِ الرُّوحِيَّة الَّتى تَمُورُ فِى نُفُوسِ
الشُّعَرَاءِ المُعَاصِرِين ؟!!

.....

كَلِمَةٌ أَسْمَعُهَا كَثِيراً مِن بَعْضِ مَن يَنْتَسِبُونَ إِلَى تَعَاطِى فَنِّ القَرِيض :
« الشِّعْرُ العَمُودِىُّ لا يَقُومُ بِالتَّعْبِيرِ عَن كَآفَّةِ المَشَاعِرِ الَّتِى يُكِنُّهَا الشَّاعِرُ المُعَاصِر !!. ».

أَسْمَعُ هَذِهِ الكَلِمَة ؛ فَيَأْخُذُنِى الدَّهَشُ وَالعَجَبُ مِن كَثْرَةِ دَوَرَانِهَا عَلَى الأَلْسِنَة !!... ؛ وَلَكِنِّى أَعُودُ فِى النِّهَايَةِ ؛ فَأَقُول : لا بَأْس... ؛ فَإِنَّ العَجْزَ جَدِيرٌ بِإِخْرَاجِ مَقُولاتٍ وَآرَاءٍ أَشَدُّ جَهْلاً وَسَذَاجَةً مِن مِثْلِ هَذَا الرَّأْى وَتِلْكَ المَقُولَةِ.
مَازِلْتُ أَقُول : لَو أَنَّنَا أَرَدْنَا اخْتِبَارَ مَا عِنْدَ صَاحِبِ هَذِهِ الكَلِمَةِ مِن مَخْزُونٍ شِعْرِىٍّ مَحْفُوظ ؛ أَو عَلَى الأَقَل : أَرَدْنَا الوُقُوفَ عَلَى مَا كَانَ مِن قِرَاءَتِهِ لِلأَعْمَالِ الشِّعْرِيَّةِ؟ ؛ لَخَرَجْنَا فِى النِّهَايَةِ بِمَا يَسْتَوْجِبُ الضَّحِكَ وَالسُّخْرِيَة !! ... ؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ عَدُوُّ مَا يَجْهَلُ... ؛ وَلَكِنَّ الجَهْلَ بِأَمْرٍ هُوَ مِن أَهَمِّ الشُّرُوطِ وَالمُقَوِّمَات... ؛ لَهُوَ مِمَّا يَدْعُو إِلَى النُّفُورِ وَالهُزْءِ فِى آن !!... ؛ وَأَمَّا الشَّاعِرُ الَّذِى غَاصَ فِى دَوَاوِينِ العَرَبِ وَأَشْعَارِهَا ـ قَدِيمَهَا وَحَدِيثَهَا ـ ؛ مِنَ المُحَالِ أَن

يَفُوهَ بِمِثْلِ هَذِهِ الكَلِمَةِ المَأْفُونَةِ... ؛ بَل هُوَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ المَوْهِبَةَ إِذَا مَا شَدَّ مِن أَزْرِهَا اطِّلاعٌ وَاسِعٌ عَلَى الشِّعْرِ العَرَبِىِّ ؛ كَانَت قَمِينَةً بِأَن تَأْتِى بِالأَعَاجِيب ... ؛ وَأَن تَتَمَكَّنَ بِسُهُولَةٍ مِنَ التَّعْبِيرِ عَن أَىِّ عَاطِفَةٍ تُحَاوِرُ ذَاتَهُ وَتُنَاقِشُ عَقْلَهُ وَرُوحَهُ... ؛ وَمِن أَعْظَمِ الأَدِلَّةِ الَّتِى تَدْحَضُ زَيْفَ تِلْكَ المَقُولَةِ المَوْبُؤةِ ؛ هَذَا المِثَالُ الفَرِيدُ الرَّائِع :

الشَّاعِرُ العِرَاقِىُّ الكَبِير عَبْدُ الوَهَّابِ البَيَّاتِى [١٩٢٦ ـ ١٩٩٩ م] مَا تَعْرِفُهُ الكَثْرَةُ الكَاثِرَةُ إِلاَّ فِى صُورَةِ الشَّاعِرِ الحَدَاثِىِّ الَّذِى صَاغَ مَشَاعِرَهُ وَرُؤاهُ عَن طَرِيقِ قَصِيدَةِ التَّفْعِيلَة... ؛ هَذَا هُوَ مَا يُعْرَفُ عَن هَذَا الرَّجُل... ؛ وَلَكِنَّ الَّذِى يَجِبُ أَن يُعْرَفَ وَنَحْنُ فِى مَقَامِنَا هَذَا : أَنَّهُ حِينَ أَرَادَ ذَاتَ مَرَّةٍ أَن يُعَبِّرَ عَن بَعْضِ مَا يَجِدُهُ بِدَخِيلَةِ نَفْسِهِ ؛ وَوَجَدَ أَنَّهُ قَد صَاغَ فِكْرَتَهُ مِن خِلالِ القَصِيدَةِ العَمُودِيَّةِ ذَاتِ الشَّكْلِ التُّرَاثِىِّ : كَانَ النِّتَاجُ هُوَ هَذِهِ الرَّائِعَة !! :

دَارُوا مَعَ الشَّمْسِ فَانْهَارَت عَزَائِمُهُم
... ؛ وَعَادَ أَوَّلُهُم يَنْعِى عَلَى الثَّانِى
... ؛ وَسَارِقُ النَّارِ لَم يَبْرَح كَعَادَتِهِ
. ؛ يُسَابِقُ الرِّيحَ مِن حَانٍ إِلَى حَانِ
..... ؛ لَم تَزَل لَعْنَةُ الآبَاءِ تَتْبَعُهُ
وَتَحْجُبُ الأَرْضَ عَن مِصْبَاحِهِ القَانِى
وَلَم تَزَل فِى السُّجُونِ السُّودِ رَائِحَةٌ
وَفِى المَلاجِئِ مِن تَارِيخِهِ العَانِى

مَشَاعِلٌ كُلَّمَا الطَّاغُوتُ أَطْفَأَهَا

؛ عَادَت تُضِىءُ عَلَى أَشْلاءِ إِنْسَانِ

عَصْرُ البُطُولاتِ قَد وَلَّى وَهَا أَنَذَا

. ؛ أَعُودُ مِن عَالَمِ المَوْتَى بِخِذْلانِ

وَحْدِى احْتَرَقْتُ ! أَنَا وَحْدِى ! وَكَم عَبَرَت

بِىَ الشُّمُوسُ وَلَم تَحْفَل بِأَحْزَانِى

إِنِّى غَفَرْتُ لَهُم ! ؛ إِنِّى رَثَيْتُ لَهُم !

؛ إِنِّى تَرَكْتُ لَهُم يَا رَبِّ أَكْفَانِى !

؛ فَلْتَلْعَبِ الصُّدْفَةُ العَمْيَاءُ لُعْبَتُهَا

فَقَد بَصَقْتُ عَلَى قَيْدِى وَسَجَّانِى

..... ؛ وَمَا عَلَىَّ إِذَا عَادُوا بِخَيْبَتِهِم

.. ؛ وَعَادَ أَوَّلُهُم يَنْعِى عَلَى الثَّانِى

عِنْدِى أَنَّ هَذِهِ القَصِيدَة :- وَالَّتِى كَتَبَهَا شَاعِرٌ مِن أَوَائِلِ رُوَّادِ الدَّعْوَةِ إِلَى الشِّعْرِ الحَدَاثِىِّ - تُعَدُّ مِن عُيُونِ الشِّعْرِ العَرِبِىِّ المُعَاصِرِ ؛ فَلَقَد أَصَابَت قَصَبَ السَّبْقِ مِن جِهَةِ اللَّفْظِ وَالمُوسِيقَى وَالمَعْنَى ؛ وَأَعْجَبُ مِن كُلِّ ذَلِكَ أَنَّهَا خَرَجَت مِن شَاعِرٍ يُعَدُّ مِن أَعْظَمِ مَن ثَارُوا عَلَى القَالِبِ المَوْرُوث !!... ؛ فَهَل بَعْدَ هَذَا الدَّلِيل - وَكَفَى بِهِ دَلِيلاً وَحُجَّةً - نُصِيخُ السَّمْعَ لأَصْحَابِ هَذَا الزَّعْمِ المُفْتَرَى؟!! .

ـ المَقَالَةُ الثَّالِثَة :

.....

۞ ـ أَثَرُ التَّمْثِيلِ الصَّوْتِىِّ لِلْمَعَانِى فِى عَمْلِيَّةِ التَّأْثِيرِ وَالتَّفَاعُلِ بَيْنَ الشَّاعِرِ وَالمُتَلَقِّى

.....

مَا هِىَ عَلاقَةُ التَّشْكِيلِ الصَّوْتِىِّ لِلشِّعْرِ بِالمَعْنَى ؛ وَأَثَرُ ذَلِكَ عَلَى عَمَلِيَّةِ الانْطِبَاع ؟.

.....

هَذِهِ العَلاقَةُ مَا تَنْتُجُ إِلاَّ مِن تَجَاوُرِ الأَصْوَاتِ وَتَفَاعُلِهَا ؛ وَمَجِيئِهَا عَلَى وَجْهٍ يُمِيِّزُ المُحْتُوَى ؛ وَتَتَمَيَّزُ هِىَ بِهِ مِن جِهَةٍ أُخْرَى... ؛ فَالأَلْفَاظُ المُعْجَمِيَّةُ لا تَبْقَى مَحْضُ رُمُوزٍ قَاصِرَةً عَلَى دِلالَتِهَا ؛ بَل تَتَجَاوَزُ ذَلِكَ إِلَى مُسْتَوَىً أَعْظَمَ يَتَّصِلُ بِالمَجَاز ؛ حَيْثُ يَتَّحِدُ التَّشْكِيلُ الصَّوْتِىُّ بِالمُسْتَوَيَيْنِ البَصَرِىِّ وَالسَّمْعِىِّ ؛ فَبَعْضُ الصِّيَغِ قَد تُوحِى بِنَوْعٍ مِنَ القُوَّةِ وَالحِدَّةِ ؛ وَبَعْضُهَا قَد يُوحِى بِنَوْعٍ مِن الرُّومَانْسِيَّةِ الحَالِمَة.

يُخْطِىءُ مَن يَظُنُّ وُجُودَ قِيمٍ صَوْتِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ تُعَدُّ بِمَثَابَةِ الأُسُسِ وَالمَعَايِيرِ الَّتِى يَنْبَغِى السَّيْرُ عَلَى مُقْتَضَاهَا ؛ بَل غَايَةُ الأَمْرِ : أَنَّ التَّشْكِيلَ الصَّوْتِىَّ وَالوَزْنَ وَالإِيقَاعَ ؛ كُلُّ ذَلِكَ يُعْطِى التَّجْرِبَةَ الشِّعْرِيَّةَ صُورَةً مِن صُورِ العَبْقَرِيَّةِ ؛

وَيَصِلُ بِهَا إِلَى ذُرْوَةِ الإِبْدَاعِ وَالتَّمَيُّز.

هُنَاكَ عَلاقَةٌ تَبَادُلِيَّةٌ إِيجَابِيَّةٌ بَيْنَ التَّشْكِيلِ الصَّوْتِىِّ وَبَيْنَ التَّجْرِبَةِ وَالرُّؤْيَةِ وَالمَوْقِفِ الَّذِى يُعَبِّرُ عَنْهُ النَّصُّ الشِّعْرِىُّ .

ـ المَقَالَةُ الرَّابِعَة :

.....

۞ ـ الدَّوْرُ الإِيجَابِىُّ لِلذَّوْقِ الأَدَبِىِّ ..... ؛ وَأَهَمِيَّةُ الاحْتِكَامِ إِلَى نَظَرِيَّةِ النَّقْدِ التَّأَثُّرِىِّ

.....

يَعْتَمِدُ الذَّوْقُ الأَدَبِىُّ الرَّفِيعُ عَلَى الثَّقَافَةِ الوَاسِعَةِ مِن جِهَةٍ ؛ وَقُوَّةِ الحِسِّ الفَنِىِّ المُبْدِعِ مِن جِهَةٍ أُخْرَى... ؛ فَالشَّيْخُ حُسَيْن المَرْصَفِىُّ [ت ١٨٨٥ م] يَرَى أَنَّ التَّنَاسُبَ هُوَ الجَمَال ؛ وَأَنَّ إِدْرَاكَ التَّنَاسُبِ إِنَّمَا يَأْتِى عَن طَرِيقِ الذَّوْقِ الَّذِى تَحَقَّقَ مِن مُمَارَسَةِ أَنْمَاطِ الثَّقَافَةِ العَالِيَة.

قَالَ بَعْدَ أَن عَرَضَ لِرَأْى ابْنِ خَلْدُون فِى الذَّوْق :

« وَأَمَّا قَوْلُهُ فِى تَفْسِيرِ الذَّوْق ؛ فَأَبْيَنُ مِنْهُ مَا سَأُلْقِيهِ عَلَيْك : وَذَلِكَ أَنَّ بَيْنَ الأَشْيَاءِ تَنَاسُبَاً ؛ بِحَيْثُ مَتَى اسْتَوْفَت عِنْدَ اجْتِمَاعِهَا حَظَّهُ مِنْهُ ؛ قَامَت مِنْهَا صُورَةٌ يَتَفَاوَتُ النَّاسُ فِى إِدْرَاكِ حُسْنِهَا طَبْعَاً وَتَكَلُّفَاً ؛ فَمِنْهُم مَن يُدْرِكُ ذَلِكَ وَلا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ ؛ وَلَيْسَ مُدْرِكُوهُ سَوَاءٌ فِيهِ ؛ فَمِنْهُم مَن يَقْنَعُ بِإِدْرَاكِ ظَوَاهِرِ الأَشْيَاء ؛ وَمِنْهُم مَن يَنْتَهِى إِدْرَاكُهُ إِلَى اعْتِبَارِ دَقَائِقِهَا وَخَوَافِيهَا ؛ وَتَفْسِيرُ ذَلِكَ بِمَا تُشَاهِدُهُ مِن شِدَّةِ سُرُورِ بَعْضِ النَّاسِ عِنْدَ رُؤْيَتِهِم لِلأَشْيَاءِ المُنَاسِبَةِ الَّتِى يُلائِمُ بَعْضُهَا بَعْضَاً ؛ وَشِدَّةِ نَفْرَتِهِ وَانْقِبَاضِهِ عَن رُؤيَةِ خِلافِهَا ؛ وَلا يَخْتَصُّ

ذَلِكَ بِشَيْءٍ دُونَ شَيْءٍ ؛ فَتَرَاهُ يَتَأَمَّلُ الأَبْنِيَةَ وَأَوْضَاعَهَا ؛ وَمَا اشْتَمَلَت عَلَيْهِ مِن مُكَمِّلاتِ الانْتِفَاعِ بِهَا ؛ فَإِذَا أَدْرَكَ فِيهَا التَّنَاسُبَ اللائِقَ بِهَا ؛ رَأَيْتَهُ قَد انْشَرَحَ صَدْرُهُ ؛ وَتَجَدَّدَ سُرُورُهُ ؛ وَأَخَذَ فِي نَعْتِهَا وَالثَّنَاءِ عَلَيْهَا... ؛ فَالإِدْرَاكُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِتَنَاسُبِ الأَشْيَاءِ وَيُوجِبُ الاسْتِحْسَانَ وَالاسْتِقْبَاحَ هُوَ المُسَمَّى بِالذَّوْق : وَهُوَ طَبِيعِيٌّ ؛ يَنْمُو وَيَتَرَبَّى بِالنَّظَرِ فِي الأَشْيَاءِ وَالأَعْمَالِ مِن جِهَةِ مُوَافَقَتِهَا لِلغَايَةِ المَقْصُودَةِ مِنْهَا .» . (١).

.....

ـ المَنْفَلُوطِيُّ... وَقَضِيَّةُ الـذَّوْق :

وَأَمَّا الشَّيْخُ مُصْطَفَى لُطْفِي المَنْفَلُوطِي [ت ١٩٢٤ م] : فَيَرَى أَنَّ الذَّوْقَ أَصْبَحَ مِعْيَاراً فِي الحُكْمِ عَلَى الأَعْمَالِ الأَدَبِيَّةِ ؛ فَهُوَ يَقُول :

« لا يَمْنَعُ الجَاهِلَ جَهْلُهُ مِن أَن يَكُونَ رَأْيُهُ فِي اسْتِحْسَانِ الكَلامِ وَاسْتِهْجَانِهِ رَأْياً صَائِباً ؛ لا ؛ بَل رُبَّمَا كَانَ شُعُورُهُ بِحُسْنِ الكَلامِ وَقُبْحِهِ ـ مَتَى رُزِقَ حَظّاً مِن سَلامَةِ الذَّوْقِ وَاسْتِقَامَةِ الفَهْم ـ أَصَحَّ مِن رَأْي الأَدِيبِ المُتَكَلِّفِ الَّذِي يَتَعَمَّلُ النَّقْدَ تَعَمُّلاً ؛ وَيَتَعَمَّقُ التَّعَمُّقَ كُلَّهُ فِي التَّفْتِيشِ عَن حَسَنَاتِ الكَلامِ وَسَيِّئَاتِهِ حَتَّى يَضِلَّ عَنْهَا ؛ وَرُبَّ ابْتِسَامَةٍ أَو تَقْطِيبَةٍ يَمُرَّانِ بِوَجْهِ السَّامِعِ العَامِيِّ عَفْواً : أَنْفَعُ لِلأَدِيبِ حِينَ يَرَاهُمَا ؛ وَأَعْوَنُ لَهُ عَلَى مَعْرِفَةِ مَكَانِ الحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ مِن كَلامِهِ مِن مُجَلَّدٍ ضَخْمٍ يَكْتُبُهُ عَالِمٌ مُضْطَلِعٌ بِالأَدَبِ

(١) ـ « الوَسِيلَةُ الأَدَبِيَّة » ؛ (ج٢/ ٤٧٣) ـ مطبعة المدارس الملكيَّة : ١٨٧٥م ـ .

وَاللُّغَةِ فِي نَقْدِ شِعْرِهِ أَو نَثْرِهِ .)). (٢).

وَهَكَذَا نَرَى : أَنَّ الشَّيْخَ المَنْفَلُوطِيَّ يُوشِكُ أَن يَكُونَ نَاقِدَاً تَأَثُّرِيَّاً :

- إِذ أَنَّهُ يَمِيلُ إِلَى رَفْضِ التَّعْوِيلِ عَلَى أُسُسِ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ وَمَعَايِيرِهِ تَعْوِيلاً لا يَرَى غَيْرَ هَذِهِ الأُسُسِ وَلا يُؤْمِنُ بِسِوَاهَا .

- وَهُوَ يُؤْمِنُ أَيْضَاً بِقُوَّةِ الشُّعُورِ النَّفْسِيِّ وَإِلْهَامِ الحِسِّ وَالذَّوْقِ الَّذِي يَحْتَكِمُ إِلَى ذَوْقٍ صَحِيحٍ وَوَعْيٍ جَيِّدٍ .

الشَّيْخُ المَنْفَلُوطِيُّ لا يَجْعَلُ قَانُونَاً مِن قَوَانِينِ النَّقْدِ فِي مَوْضِعِ القَدَاسَةِ سِوَى قَانُونِ الذَّوْقِ المُثَقَّفِ المُرْهَفِ ؛ فِي حِينِ كَوْنِ كَافَّةِ الشُّرُوطِ الأُخْرَى لا تَقُومُ إِلاَّ بِدَوْرٍ ثَانَوِيٍّ - وَإِن كَانَ دَوْرَاً حَتْمِيَّاً ولابُدَّ مِن تَوَافُرِهِ - .

يَقُولُ الشَّيْخُ المَنْفَلُوطِيُّ :

((إِذَا سَمِعْتَ بَيْتَاً مِنَ الشِّعْرِ : فَأَطْرَبَكَ ؛ أَو أَحْزَنَكَ ؛ أَو أَقْنَعَكَ ؛ أَو أَرْضَاكَ ؛ أَو هَاجَكَ وَأَنْتَ سَاكِنٌ ؛ أَو هَدَّأَ رَوْعَكَ وَأَنْتَ ثَائِرٌ ؛ أَو تَرَكَ أَيَّ أَثَرٍ مِن الآثَارِ فِي نَفْسِكَ كَمَا تَتْرُكُ النَّغْمَةُ المُوسِيقِيَّةُ أَثَرَهَا فِي نَفْسِ سَامِعِهَا : فَاعْلَم أَنَّهُ مِن بُيُوتِ المَعَانِي ؛ وَأَنَّ هَذَا الَّذِي تَرَكَهُ فِي نَفْسِكَ مِنَ الأَثَرِ هُوَ رُوحُهُ وَمَعْنَاه .

وَإِن مَرَرْتَ بِبَيْتٍ آخَرٍ : فَاسْتَغْلَقَ عَلَيْكَ فَهْمُهُ ؛ وَثَقُلَ عَلَيْكَ ظِلُّهُ ؛ وَشَعُرْتَ

---

(٢) - ((النَّظَرَات)) : دار الآفاق الجديدة ؛ الطبعة (١) : ١٩٨٢م ؛ (ج٣/٦٨) .

بِجُمُودِ نَفْسِكَ أَمَامَهُ ؛ وَخُيِّلَ إِلَيْكَ أَنَّكَ بَيْنَ يَدَى جُثَّةٍ هَامِدَةٍ لا رُوحَ فِيهَا : فَاعْلَم أَنَّهُ لا مَعْنَى لَهُ وَلا حَيَاةَ فِيهِ ؛ فَإِن وَجَدْتَ صَاحِبَهُ وَاقِفاً بِجَانِبِهِ يُحَاوِلُ أَن يُوَسْوِسَ لَكَ أَنَّ وَرَاءَ هَذِهِ الظُّلْمَةِ الحَالِكَةِ المُتَكَاثِفَةِ نُوراً مُتَوَهِّجاً يَكْمُنُ فِي طِيَّاتِهَا : فَكَذِّبْهُ ؛ وَفِرَّ بِنَفْسِكَ وَأَدَبِكَ وَذَوْقِكَ مِنْهُ فِرَاراً لا عَوْدَةَ لَكَ مِن بَعْدِهِ .

هَذَا هُوَ المِيْزَانُ الَّذِي يَجِبُ أَن تَزِنَ بِهِ الكَلام ؛ وَنَصِيحَتِي إِلَيْكَ أَلاَّ تُصَدِّقَ تَعْرِيفاً وَاحِداً مِن تِلْكَ التَّعْرِيفَاتِ المُتَعَدِّدَةِ المُتَنَاقِضَةِ الَّتِي يَضَعُهَا وَاضِعُوهَا مِنَ الأُدَبَاءِ لأَشْعَارِهِم خَاصَّةً لا لِلشِّعْرِ عَامَّةً ؛ وَاجْعَل شُعُورَ نَفْسِكَ هُوَ المِيْزَانُ الَّذِي تَزِنُ بِهِ مَا تَسْمَع ؛ فَكَمَا أَنَّكَ لا تَعْتَمِدُ عَلَى تَعْرِيفٍ مِن تَعْرِيفَاتِ الجَمَالِ وَلا تَلْجَأُ إِلَى قَانُونٍ مِن قَوَانِينِهِ عِنْدَ وُقُوعِ نَظَرِكَ عَلَى وَجْهِ امْرَأَةٍ لِمَعْرِفَةِ دَرَجَتِهَا مِنَ الحُسْن : كَذَلِكَ لا تَعْتَمِد فِي اسْتِحْسَانِ مَا تَسْتَحْسِنُ مِنَ الكَلامِ وَاسْتِهْجَانِ مَا تَسْتَهْجِنُ : إِلاَّ عَلَى شُعُورِ نَفْسِك ؛ وَإِلْهَامِ حِسِّك.)).(٣).

تَأَمَّل هَذَا الكَلامَ المُتْقَنَ الرَّفِيع : وَلَن يَسَعَكَ بَعْدَ التَّأَمُّلِ إِلاَّ أَن تَجْزِمَ بِأَنَّهُ قَد اسْتَمَلَ عَلَى أُصُولِ نَظَرِيَّةِ النَّقْدِ التَّأَثُّرِيِّ ؛ وَالَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَى تَحْكِيمِ قَاعِدَة ((التَّذَوُّق)) ... ؛ وَهِيَ نَظَرِيَّةٌ لا تَخْلُو مِنَ حُسْنِ التَّأَمُّلِ ؛ وقُوَّةِ الشُّعُورِ : طَالَمَا

(٣) ـ ((النَّظَرَات)) ؛ (ج٣/١٥١ ـ ١٥٢) .

أُيِّدَت بِالشُّرُوطِ الأَوَلِيَّةِ ؛ وَالَّتِى بِدُونِهَا يَعْجَزُ التَّذَوُّقُ عَن القِيَامِ بِدَوْرِهِ المُنْتَظَر .

ـ المَقَالَةُ الخَامِسَة :

.....

۞ ـ المَذْهَبُ الوَاقِعِىُّ فِى الشِّعْرِ العَرَبِىِّ الحَدِيث

﴿ النَّزْعَة الوَاقِعِيَّة..... وَالتَّجَارِبُ الشِّعْرِيَّةُ الَّتِى تُعَبِّرُ بِلِسَانِ الضَّمِيرِ الوَطَنِىِّ ؛ وَتُنَاقِشُ القَضَايَا السِّيَاسِيَّة ﴾

.....

لَم يَعُد الشِّعْرُ العَرَبِىُّ يَعْرِفُ العَيْشَ فِى خَيْمَةٍ وَاحِدَةٍ دُونَ غَيْرِهَا ؛ هِىَ خَيْمَةُ الشَّاعِرِ الَّذِى مَا يَعْرِفُ مِنَ الحَيَاةِ غَيْرَ آلامِ الأَنَا وَشُجُونِ الذَّاتِ وَالتَغَنِّى بِآمَالِ حَيَاتِهِ وَرَغَبَاتِ عَقْلِهِ وَرُوحِهِ... ؛ لَقَد غَدَا الشِّعْرُ مُطَالَبَاً بِالقِيَامِ بِدَوْرِهِ نَحْوَ الأُمَّةِ وَالأَرْضِ وَالوَطَن ؛ لَم تَعُد مُهِمَّةُ الشَّاعِرِ قَاصِرَةً عَلَى مُجَرَّدِ إِنْكَارِ العَبَثِيَّةِ الَّتِى تُسَيْطِرُ عَلَى التَّارِيخِ المُعَاصِرِ عَن طَرِيقِ التَّنْدِيدِ الخَاطِفِ ثُمَّ لا يَلْبَثُ أَن يَعُودَ إِلَى نَفْسِهِ وَذَاتِهِ ؛ بَل أَصْبَحَ الشَّاعِرُ الَّذِى يُدَافِعُ بِعَبْقَرِيَّةٍ أَدَائِيَّةٍ عَن حُقُوقِ الجَمَاهِيرِ المَنْكُوبَةِ وَالطَّبَقَاتِ المُسْتَذَلَّةِ : هُوَ الشَّاعِرُ الَّذِى يَسْتَأْثِرُ بِاحْتِرَامِ أَبْنَاءِ أَرْضِهِ وَيَتَقْدِيرِ الثَّقَافَةِ لِدَوْرِهِ : لِكَوْنِهِ أَسْهَمَ بِجَهْدِهِ الَّذِى يَشْتَرِطُهُ ضَمِيرُ المُثَقَّف ؛ وَتَسْتَوْجِبُهُ اللَّحْظَةُ التَّارِيخِيَّةُ القَائِمَة... ؛ وَأَصْبَحَت قَامَاتُ الشُّعَرَاءِ تَتَبَايَنُ حَسْبَ قُدْرَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُم عَلَى التَّعَمُّقِ فِى تَحْلِيلِ ظَوَاهِرِ الفَسَادِ وَعَاهَاتِ النُّفُوس ؛ وَالغَوْصِ مِن أَجْلِ البَحْثِ عَن سِرِّ الأُكْذُوبَةِ

الكُبْرَى الَّتِى تَنْهَشُ فِى جَسَدِ الكَيَانِ المُقَدَّسِ الكَبِير.

ـ المَقَالَةُ السَّادِسَة:

.....

۞ ـ الفُنُونُ الشِّعْرِيَّةُ الحَدِيثَة

أَزْمَةُ ثَقَافَةٍ ؟!! ... ؛ أَم حَالَةٌ مِن الإِبْداعِ الحَدَاثِىِّ المُتَوَائِمِ مَعَ رَوْحِ العَصْر ؟!!

.....

ـ مَقْصِد:

كَانَ الشِّعْرُ العَرَبِىُّ التُّرَاثِىُّ بِصُورَتِهِ العَمُودِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ بِمَثَابَةِ الإِطَارِ المُقَدَّسِ الَّذِى لا يَجُوزُ الخُرُوجُ عَلَيْهِ بِحَالٍ مِنَ الأَحْوَال... ؛ وَعَلَى الرَّغْمِ مِن كَوْنِ هَذَا النَّمَطِ الشِّعْرِىِّ المُتَوَارَثِ المَعْرُوفِ كَانَت لَهُ قَوَاعِدٌ وَشُرُوطٌ لا تَتَبَدَّلُ وَلا تَتَغَيَّرُ ؛ إِلاَّ أَنَّ الشُّعَرَاءَ قَد أَوْدَعُوهُ أَشْكَالاً عَبْقَرِيَّةً مِنَ التَّعْبِيرِ أَظْهَرَت جَوَانِبَ قُوَّتِهِ ؛ وَأَبَانَت عَن قُدْرَتِهِ عَلَى البَقَاءِ وَالخُلُود.

.....

ـ مَقْصِد:

كَانَت المُحَاوَلاتُ لإِحْدَاثِ تَغْيِيرٍ فِى صُورَةِ القَصِيدَةِ العَرَبِيَّةِ جَارِيَةٌ وَقَائِمَةٌ مُنْذُ زَمَنٍ يَضْرِبُ بِجُذُورِهِ فِى أَعْمَاقِ التَّارِيخ... ؛ فَقَد حَاوَلَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ أَن يَتَخَلَّصَ مِن قَيْدِ القَافِيَة ؛ لِكَوْنِهَا تُعَدُّ قَيْداً يُقَيِّدُ الشَّاعِرَ وَيَمْنَعُهُ التَّحَرُّرَ مِمَّا لا يُحِب ؛ إِذ الالْتِزَامُ دَائِمَاً وَأَبَدَاً بِقَافِيَةٍ ثَابِتَةٍ لا تَتَغَيَّرُ وَلا تَتَبَدَّلُ ؛ قَد يُجْبِرُهُ عَلَى الإِتْيَانِ بِبَعْضِ المَعَانِى الَّتِى لا يُرِيدُهَا ؛ وَكَثِيراً مَا يَضْطَرُّ الشَّاعِرُ إِلَى تِكْرَارِ

نَفْسِ القَافِيَة ؛ مِمَّا يُؤدِّى إِلَى ضَعْفِ النَّغْمِ وَرَتَابَتِهِ .

وَقَد يَحْتَجُّ بَعْضُهُم بِأَنَّ تِكْرَارِ المَعَانِى وَالقَوَافِى ؛ لا يَقَعُ فِيهِ إِلاَّ الشَّاعِرُ الَّذِى يَفْتَقِرُ إِلَى الطَّبْعِ وَالشَّاعِرِيَّةِ مِن جِهَةٍ ؛ وَإِلَى ضَعْفِ حَصِيلَتِهِ اللُّغَوِيَّةِ مِن جِهَةٍ أُخْرَى.

وَهَذَا تَعلِيلٌ مَقْبُول ؛ وَلَكِنِّى أَقُول :

مَا سَلَكَ هَذَا المَسْلَكَ الشُّعَرَاءُ الضُّعَفَاءُ وَحَسْب ؛ بَل ذَهَبَ إِلَيْهِ عَدَدٌ مِنَ فُحُولِ فَنِّ القَرِيض ؛ وَأَبُو العَتَاهِيَة ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ وَهُوَ صَاحِبُ المَكَانَةِ المَعْرُوفَةِ فِى الفَنِّ الشِّعْرِىِّ ؛ لَهُ تَجْرِبَةٌ شَهِيرَةٌ تَتَمَثَّلُ فِى مَزْدَوَجَتِهِ البَدِيعَة ؛ وَالَّتِى كَانَت تُعَدُّ بِمَثَابَةِ نَمَطٍ حَدَاثِىٍّ فِى وَقْتِهَا.

.....

ـ مَقْصِد :

وَتَمْضِى أَزْمَانٌ وَأَزْمَان ؛ وَإِذَا بِنَا فِى مَطَالِعِ القَرْنِ العِشْرِين... ؛ حَاوَلَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ أَن يَأْتِى بِجَدِيدٍ ؛ فَنَظَرَ إِلَى تَجْرِبَةِ الشِّعْرِ المُزْدَوَج ؛ ثُمَّ انْطَلَقَ مِن خِلالِهَا ؛ يَقُول عَبْدُ الرَّحْمَن شُكْرِى [١٨٨٦ ـ ١٩٥٨ م] فِى قَصِيدَةٍ لَهُ بِعُنْوَان ((الزَّوْجَة الغَادِرَة)) :

أَىُّ شَىْءٍ يَهْفُو بِلُبِّكَ عَن وَصْـ

ـلِ الغَوَانِى وَعَيْشِ أَهْلِ الخُدُودِ؟!!

..... قَائِمَاً فِى النَّعِيمِ مِثْلَ مُقَامِ

طَالِبِ الرِّىِّ فِى جِوَارِ الغَدِيرِ

لا تُعِد لِى ذِكْرَ الغَوَانِى ؛ فَإِنِّى
.... ؛ لَم أَكُن عَن ذِكْرِهَا بِجَلِيدِ
كُلُّ حَسْنَاءَ فِى لِحَاظِى عِظَامٌ
..... ؛ عَارِيَاتٌ مِنَ البَهَاءِ المُنِيرِ

ثُمَّ تَقَدَّمَ فِى مَنْهَجِهِ الإِبْدَاعِىِّ ؛ حَيْثُ نَسَجَ بَعْضَ شِعْرِهِ غَيْرَ مُلْتَزِمٍ بِوِحْدَةِ القَافِيَة ؛ فَهُوَ يَقُولُ فِى قَصِيدَتِهِ « نابليون والسَّاحِرُ المِصْرِىُّ » :

سَلَكَت بِنَابِلْيونَ سَالِبَةُ الكَرَى
؛ وَالنَّوْمُ لا يَعْنُو لِكُلِّ عَظِيمِ
.... ؛ فِى لَيْلَةٍ قَلَبَ اللَّئِيمُ لِقَلْبِهَا
زِنْجِيَّةً قَد عُرِّيَت مِن حَلْيِهَا
فَإِذَا أَرَادَ الطَّيْفُ أَن يَسْرِى بِهَا
مَنَعَت مَهَابَتُهُ الظَّلامَ مِنَ السُّرَى
عَبَسَت فَخَالَ الأُفْقَ طَلْعَةَ قَاتِلٍ
.... ؛ جَهْمَ المُحَيَّا رَائِعَ اللَّحَظَاتِ
وَتَنَفَّسَت نَفَسَ المُحِبِّ إِذَا قَضَى
..... ؛ وَحَبِيبُهُ بِحَنِينِهِ لَم يَعْلَمِ

ثُمَّ... ؛ السِّرُّ فِى كَوْنِ عَبْدِ الرَّحْمَن شُكْرِى لَم يَسْتَطِع أَن يُمَكِّنَ لِهَذِهِ المُحَاوَلاتِ الاجْتِهَادِيَّة ؛ إِنَّمَا يَكْمُنُ فِى ضَعْفِ نَزْعَتِهِ الفَنِيَّةِ الَّتِى نَسَجَ بِهَا هَذِهِ

الأَشْكَالِ الشِّعْرِيَّة.

.....

ـ مَقْصِد:

جَاءَت النَّهْضَةُ الإِبْدَاعِيَّةُ الحَقِيقِيَّةُ مِن خِلالِ شُعَرَاءِ المِهْجَر ـ مِيخَائِيل نِعِيمَه ؛ وَجُبْرَان خَلِيل جُبْرَان ؛ وَإِيلْيا أَبُو مَاضِى ـ .

كَانَت سِمَاتُ : الحُزْن ... ؛ وَالأَلَم ... ؛ وَالإِيمَانُ المُطْلَقُ بِخَوَاءِ الحَيَاةِ وَحَقَارَةِ مَعْنَاهَا ... ؛ وَالشُّعُورُ الدَّائِمُ بِالغُرْبَةِ المَكَانِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّة ... ؛ المَوْت ... ؛ المَجْهُول ... ؛ كَانَت هَذِهِ المَعَانِى هِىَ الَّتِى تُمَيِّزُ شُعَرَاءَ المِهْجَر ... ؛ وَإِذَا اجْتَمَعَت كُلُّ هَذِهِ المَشَاعِرِ فِى نَفْسِ إِنْسَان ... ؛ كَثُرَت أَسْبَابُ القَوْلِ عِنْدَهُ ... ؛ وَفِى حَوْمَةِ العِرَاكِ النَّفْسِىِّ ... ؛ يَأْتِى التَّحَرُّرُ مِن كُلِّ شَىْءٍ ... ؛ وَتَبْقَى الرَّغْبَةُ فِى بَثِّ الأَشْجَانِ وَالآلامِ عَلَى أَىِّ وَجْهٍ كَان ... ؛ وَمِن هَاهُنَا يَأْتِى الإِبْدَاع .

فِى لَحْظَةٍ مِن لَحَظَاتِ الصِّرَاعِ النَّفْسِىِّ ـ وَمَا أَكْثَرَهَا فِى حَيَاةِ المِهْجَرِيين ـ ؛ كَتَبَ مِيخَائِيل نِعِيمَه يَقُول :

إِيهٌ نَفْسِى !! ؛ أَنْتِ لَحْنٌ فِىَّ قَد رَنَّ صَدَاه
وَقَّعَتْكِ يَدُ فَنَّانٍ خَفِىٍّ لا أَرَاه
أَنْتِ رِيحٌ ؛ وَنَسِيمٌ ؛ أَنْتِ مَوْجٌ ؛ أَنْتَ بَحْرُ
أَنْتَ بَرْقٌ ؛ أَنْتَ رَعْدٌ ؛ أَنْتَ لَيْلٌ ؛ أَنْتَ فَجْرُ
أَنْتَ فَيْضٌ مِن إِلَه

وَفِى لَحْظَةٍ مِن لَحَظَاتِ القَلَقِ النَّفْسِىِّ الرَّهِيب !! ؛ كَانَت « الطَّلاسِم » لإِيلْيَا

أَبُو مَاضِى :

جِئْتُ لا أَعْلَمُ مِن أيْنَ ؛ وَلَكِنِّى أَتَيْتُ ؟!!

وَلَقَد أَبْصَرْتُ قُدَّامِى طَرِيقاً فَمَشَيْتُ !!

وَسَأَبْقَى مَاشِياً إِن شِئْتُ هَذَا أَم أَبَيْتُ !!

كَيْفَ جِئْتُ ؟!! كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِى ؟!!

لَسْتُ أَدْرِى !!

أَجَدِيدٌ أَم قَدِيمٌ أَنَا فِى هَذَا الوجُود ؟!!

هَل أَنَا حُرٌّ طَلِيقٌ ؛ أَم أَسِيرٌ فِى قُيُود ؟!!

هَل أَنَا قَائِدُ نَفْسِى فِى حَيَاتِى أَم مَقُود ؟!!

أَتَمَنَّى أَنَّنِى أَدْرِى ... ؛ وَلَكِن !!

لَسْتُ أَدْرِى !!

قَد سَأَلْتُ البَحْرَ يَوْمَاً هَل أَنَا يَا بَحْرُ مِنْكَا ؟!!

هَل صَحِيحٌ مَا رَوَاهُ بَعْضُهُم عَنِّى وَعَنْكَا ؟!!

أَم تُرَى مَا زَعَمُوا زُوراً وَبُهْتَاناً وَإِفْكَا ؟!!

ضَحِكَت أَمْوَاجُهُ مِنِّى وَقَالَت :

لَسْتُ أَدْرِى !!

أَنْتَ يَا بَحْرُ أَسِيرٌ آهِ مَا أَعْظَمَ أَسْرَكْ !!

أَنْتَ مِثْلِى أَيُّهَا الجَبَّارُ لا تَمْلِكُ أَمْرَكْ !!

أَشْبَهَت حَالُكَ حَالِى وَحَكَى عُذْرِىَ

عُذْرَكْ !!
فَمَتَى أَنجُو مِنَ الأَسْرِ وَتَنْجُو ؟!!
لَسْتُ أَدْرِى !!
قَد سَأَلْتُ السُّحْبَ فِى الآفَاقِ هَل تَذْكُرُ
رَمْلَكْ ؟!!
وَسَأَلْتُ الشَّجَرَ المُورِقَ هَل يَعْرِفُ فَضْلَكْ ؟!!
وَسَأَلْتُ الدُّرَّ فِى الأَعْنَاقِ هَل تَذْكُرُ أَصْلَكْ
وَكَأَنِّى خِلْتُهَا قَالَت جَمِيعَاً :
لَسْتُ أَدْرِى !!
يَرْقُصُ المَوْجُ وَفِى قَاعِكَ حَرْبٌ لَن تَزُولا !!
تَخْلُقُ الأَسْمَاكَ لَكِن ؛ تَخْلُقُ الحُوتَ الأَكُولا !!
قَد جَمَعْتَ المَوْتَ فِى صَدْرِكَ وَالعَيْشَ الجَمِيلا !!
لَيْتَ شِعْرِى أَنْتَ مَهْدٌ أَم ضَرِيحٌ ؟!!
لَسْتُ أَدْرِى !!
كَم فَتَاةٍ مِثْلَ لَيْلَى وَفَتَىً كَابْنِ المُلَوَّحْ !!
أَنْفَقَا السَّاعَاتِ فِى الشَّاطِىءِ تَشْكُو وَهُوَ
يَشْرَحْ !!
كُلَّمَا حَدَّثَ أَصْغَت ؛ وَإِذَا قَالَت تَرَنَّح !!
أَحَفِيفُ المَوْجِ سِرٌّ ضَيَّعَاه ؟!!

لَسْتُ أَدْرِى !!
فِيكَ مِثْلِى أَيُّهَا الجَبَّارُ أَصْدَافٌ وَرَمْلُ
إِنَّمَا أَنْتَ بِلا ظِلٍّ وَلِى فِى الأَرْضِ ظِلُّ
إِنَّمَا أَنْتَ بِلا عَقْلٍ وَلِى يَا بَحْرُ عَقْلُ
فَلِمَاذَا يَا تُرَى أَمْضِى وَتَبْقَى ؟!!
لَسْتُ أَدْرِى !!
إِنَّ فِى صَدْرِىَ يَا بَحْرُ لأَسْرَارَ عِجَابَا
نَزَلَ السِّتْرُ عَلَيْهَا وَأَنَا كُنْتُ الحِجَابَا
وَلِذَا ازْدَادُ بُعْدَاً كُلَّمَا ازْدَدْتُ اقْتِرَابَا
وَأُرَانِى كُلَّمَا أَوْشَكْتُ أَدْرِى
لَسْتُ أَدْرِى !!
وَلَقَد قُلْتُ لِنَفْسِى وَأَنَا بَيْنَ المَقَابِر
هَل رَأَيْتَ الأَمْنَ وَالرَّاحَةَ إِلاَّ فِى الحَفَائِر
فَأَشَارَت !! : فَإِذَا لِلدُّودِ عَيْثٌ فِى المَحَاجِر
ثُمَّ قَالَت : أَيُّهَا السَّائِلُ إِنِّى !! :
لَسْتُ أَدْرِى !!
انْظُرِى كَيْفَ تَسَاوَى الكُلُّ فِى هَذَا المَكَانِ
وَتَلاشَى فِى بَقَايَا العَبْدِ رَبُّ الصَّوْلَجَانِ
وَالتَّقِىُّ العَاشِقُ وَالقَالِى فَمَا يَفْتَرِقَانِ

أَفَهَذَا مُنْتَهَى العَدْلُ ؟!! ؛ فَقَالَت :

لَسْتُ أَدْرِى !!

كَم قُصُورٍ خَالَهَا البَانِى سَتَبْقَى وَتَدُوم

ثَابِتَاتٍ كَالرَّوَاسِى خَالِدَاتٍ كَالنُّجُوم

سَحَبَ الدَّهْرُ عَلَيْهَا ذَيْلَهُ فَهِىَ رُسُوم

مَالَنَا نَبْنِى وَمَا نَبْنِى لِهَدْمٍ ؟!!

لَسْتُ أَدْرِى !!

رُبَّ فِكْرٍ لاحَ فِى لَوْحَةِ نَفْسِى وَتَجَلَّى

خِلْتُهُ مِنِّى ؛ وَلَكِن لَم يَقُم حَتَّى تَوَلَّى

مِثْلَ طَيْفٍ لاحَ فِى بِئْرٍ قَلِيلاً وَاضْمَحَلاَّ

كَيْفَ وَافَى ؟!! ؛ وَلِمَاذَا فَرَّ مِنِّى ؟!!

لَسْتُ أَدْرِى !!

إِنَّنِى أَشْهَدُ فِى نَفْسِى صِرَاعَاً وَعِرَاكَا

وَأَرَى ذَاتِىَ شَيْطَانَاً... ؛ وَأَحْيَانَاً مَلاكَا

هَل أَنَا شَخْصَانِ يَأْبَى هَذَا مَعَ ذاك

اشْتِرَاكَا ؟!!

أَم تُرَانِى وَاهِمَاً فِيمَا أَرَاهُ

لَسْتُ أَدْرِى !!

بَيْنَمَا قَلْبِىَ يَحْكِى فِى الضُّحَى إِحْدَى

الخَمَائِل

فِيهِ أَزْهَـارٌ وَأَطْيَـارٌ تُغَنِّى وَجَدَاوِل

أَقْبَلَ العَصْرُ فَأَمْسَى مُوحِشَاً كَالقَفْرِ

قَاحِلِ !!

كَيْفَ صَارَ القَلْبُ رَوْضَاً ثُمَّ قَفْرَا ؟!!

لَسْتُ أَدْرِى !!

كُلُّ يَوْمٍ لِىَ شَأْنٌ ؛ كُلُّ حِينٍ لِى شُعُور

هَـل أَنَا اليَوْمَ ... ؛ أَنَا مُنْذُ لَيَالٍ وَشُهُور

أَم أَنَا عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ غَيْرِى فِى

البُكُور ؟!!

كُلَّمَا سَاءَلْتُ نَفْسِى جَاوَبَتْنِى :

لَسْتُ أَدْرِى !!

أَنَا لا أَذْكُرُ شَيْئَاً مِن حَيَاتِى المَاضِيَه !!

أَنَا لا أَعْرِفُ شَيْئَاً عَن حَيَاتِى الآتِيَه !!

لِىَ ذَاتٌ غَيْرَ أَنِّى لَسْتُ أَدْرِى مَا هِيه !!

فَمَتَى تَعْرِفُ ذَاتِى كُنْهَ ذَاتِى ؟!!

لَسْتُ أَدْرِى !!

.....

ـ مَقْصِدٌ :

حَاوَلَ الشَّاعِرُ السَّكَنْدَرِيُّ خَلِيل شَيْبُوب [١٨٩١ ـ ١٩٥١م] أَن يَذْهَبَ مَعَ التَّجْدِيدِ شَوْطَاً أَبْعَدَ مِن هَذَا ؛ فَكَانَت قَصِيدَتُهُ « الشِّرَاع » .

ذَكَرَ مُلابَسَاتَ كِتَابَتِهِ لِهَذِهِ القَصِيدَةِ ؛ فَقَالَ أَنَّهُ وَجَدَ نَفْسَهُ دُونَ انْتِبَاهٍ يَكْتُبُ هَذِهِ الكَلِمَات ؛ وَلَمَّا تَأَمَّلَهَا ؛ إِذَا بِهَا مَقْطُوعَةٌ صَغِيرَةٌ تَنْتَسِبُ تَفْعِيلاتُهَا إِلَى بَحْرِ الرَّمَل :

﴿ هَذَا البَحْرُ رَحِيباً يَمْلأُ العَيْنَ جَلالا
وَصَفَا الأُفْقُ وَمَالَت شَمْسُهُ تَرْفُو
دَلالا
وَبَدَا فِيهِ شِرَاعٌ
كَخَيَالٍ مِن بَعِيدٍ يَتَمَشَّى
فِي بِسَاطٍ مَائِجٍ مِن نَسْجِ عُشْبِ
أَو حَمَامٍ لَم يَجِد فِي الرَّوْضِ عُشَّا
فَهُوَ فِي خَوْفٍ وَرُعْبِ . ﴾.

ثُمَّ قَامَ الدُّكْتُور لِويس عَوَض بِتَجْرِبَةٍ شِعْرِيَّةٍ أَخْضَعَهَا لِهَذَا الشَّكْلِ وَلِذَلِكَ النَّمَطِ الجَدِيد ؛ فَكَتَبَ هَذِهِ القَصِيدَةَ عَامَ ١٩٣٨م وَهُوَ فِي جَامِعَةِ كَامبرِدْج الإِنْجِلِيزِيَّة ؛ ثُمَّ نَشَرَهَا فِي كِتَابِهِ « بلوتولاند وَقَصَائِد أُخْرَى » عَامَ ١٩٤٧ م ؛ وَهِيَ تَقُول :

﴿ أَيى !! ... ؛ أَيى !!
أَحْزَانُ هَذَا الكَوْكَبِ

نَاءٍ بِهَا قَلْبِي الصَّبِّي
الرِّزْءُ تَحْتَ الرِّزْءِ فِي صَدْرِي خَبِي
الشَّوْكُ فِي جَنْبِي !! ... ؛ خَرَابُ الهُدُبِ !!
سَلَّت دُمَيْعَاتٍ كَذَوْبِ السُّمِّ مِن جَفْنِي الأَبِي !! .) .

وَهِيَ تَجْرِبَةٌ جِدُّ رَائِعَةٍ بِالنَّظَرِ إِلَى كَوْنِهَا جَاءَت فِي أَوَّلِ عَهْدِ هَذَا النَّمَطِ الشِّعْرِيِّ الجَدِيد ؛ إِذ دَائِمَاً مَا يَأْتِي النُّضْجُ بَعْدَ مَرَاحِلٍ وَأَدْوَارٍ وَتَجَارِبٍ عَدِيدَةٍ ؛ أَمَّا هَذِهِ القَصِيدَةُ ؛ فَقَد تَجَاوَزَت عَثَرَات البِدَايَات ؛ حَتَّى إِنَّهَا لَتُنْسَبُ إِلَى الشِّعْرِ المَهْمُوسِ الَّذِي نَادَى بِهِ الدُّكْتُور مُحَمَّد مَنْدُور ؛ وَالشِّعْرُ المَهْمُوسُ هُوَ أَجْمَلُ وَأَرْقَى صُورِ قَصِيدَةِ التَّفْعِيلَة .

.....

ـ مَقْصِدٌ :

ـ ثَوْرَةُ الشِّعْرِ الحُر

الثَّالُوثُ الأَعْظَم فِي تَارِيخ قَصِيدَة التَّفْعِيلَة

(نَازَك المَلائِكَة... ؛ بَدْر شَاكِر السَّيَّاب... ؛ عَبْدُ الوَهَّاب البَيَّاتِي)

ثُمَّ نَجَحَ هَؤلاءُ الرُّوَّادُ فِي أَن يُحْدِثُوا ثَوْرَةً عَظِيمَةً تَمَكَّنُوا مِن خِلالِهَا أَن يَصْنَعُوا نَهْضَةً شِعْرِيَّةً مَازَالَت قَائِمَةً إِلَى اليَوْمِ رَغْمَ كَوْنِهَا قَد بُعِثَت وَنَشَأَت مُنْذُ أَكْثَرَ مِن نِصْفِ قَرْنٍ.

وَكَانَت نَازِك المَلائِكَة « بغداد ٢٣ آب= أُغسطس ١٩٢٣ـ القاهرة ٢٠ حُزيران = يُونْيُو ٢٠٠٧ م » : هِيَ أَكْثَرُ الثَّلاثَةِ تَأْثِيراً مِن جِهَةِ التَّنْظِير ؛ كَمَا أَنَّهَا كَانَت

تَمْتَلِكُ قُدْرَةً شِعْرِيَّةً قَوِيَّةً تَمَكَّنَت مِن خِلالِهَا أَن تُشارِكَ السَّيَّاب وَالبَيَّاتِى فِى التَّأْصِيلِ التَّطْبِيقِىِّ.

كَتَبَ بيتر كلارك مَقَالاً جَيِّدَاً عَن نَازِك المَلائِكَة ؛ بِجَرِيدَة الجارديان البريطانيَّة : أغسطس٢٠٠٧ م ؛ ترجمة : إبراهيم جعفر ـ ؛ فَقَال ـ بِاخْتِصَار ـ : ـ (

إن نازك الملائكة ؛ التى تُوفِّيت عن عُمرٍ بلغ الثمانين ؛ كانت واحدةً من أعظم الشُّعراء العرب تـأثيراً ونُفُـوذاً خـلال القـرن العـشرين ؛ قد عكـست حيـاة وأعمال نازك الملائكة تاريخ موطنها ودارها ـ العراق ـ ؛ وما قد حَفَّ ذاك التاريخ ؛ وذاتَها كشاعرة ؛ من مثاليَّاتٍ : رجاءٍ ؛ خيبةٍ ؛ منفىً ؛ وكآبةٍ.

وكآخرين من جيلها تأثَّرت نازك الملائكة بالشعر الإنجليزىِّ ؛ فارتادت خَلَلَ ذلك التأثُّر حركة الانفكاك من الأشكال التقليديَّة الرسميَّة « المدرسيَّة » لكتابة الشِّعرِ والتى سادت على الشِّعر العربىِّ لما قد ربا على ألفِ عام.

صدرت مجموعة نازك الملائكة الشعريَّة الأُولى « عُشَّاق الليـل » فـى عـام ١٩٤٧م ؛ عبَّرت نازك فى تلك المجموعة عن مثاليَّةٍ فى الرُّوحِ مشوبةً بتشاؤمٍ وخوفٍ من الخيبةِ وزوال الوهم ؛ كانت ثيمتا الطبيعة و « الليل » نافذتين فى شعر المجموعة إيَّاها ؛ ثم أصدرت نازك مجموعة شعريَّة ثانية فى عام ١٩٤٩ م كان اسمها « شررٌ ورماد » ؛ وكانت أكثر ثوريَّةً من مجموعتها الأُولى ؛ فى مُقدِّمتها لتلك المجموعة حاجَّت نازك الملائكة بأنَّ الأشكالَ التقليديَّة للشعر العربىِّ قد أعاقت الشعر العربىَّ عن إنجاز قممٍ فى الإبداع بَلَغتها آدابُ أُممٍ

أُخرى فى العالم.

تعاملت نازك فى قصائدها مع تلك المضامين التى هزَّت مُعاصريها: القوميَّة؛ المسائل الاجتماعيَّة والنَّسويَّة؛ اغتيال النساء اتِّقاءَاً للعار أو صوناً للشَّرف؛ ثُمَّ قيمة الاغتراب.

وحينما صدر ديوانها الشِّعرىُّ الثالث المُسمَّى « أعماق الموجة » فى عام ١٩٥٧م؛ كان مُمازجاً للأشكال التقليديَّة للكتابة بالأشكال الأجدّ - آنذاكَ - لكتابة الشِّعر الحُر.

نشرت نازك الملائكة آخر ثلاث مجموعات شعريَّةٍ لها خلال سبعينات القرن الماضى؛ واتَّسم شعرها الأحدث بمزيدٍ من التَّجريب؛ حيثُ بُدِّلَتْ - حينذاكَ - رومانسيَّتها « أو رومانطيقيَّتها » - المُتأثِّرة أساساً بأعمال الشاعر الإنجليزىِّ كييتس - إلى همٍّ مُتجهِّمٍ عابسٍ بشؤونِ القوميَّةِ والدِّين.

[وُلِدَت فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٣ م؛ وتُوفِّيَت فى ٢٠ يونيو ٢٠٠٧م].

- مِن الإِبْدَاعَاتِ الشِّعْرِيَّةِ لِنَازِك المَلائِكَة:

ـ قَصِيدَة «أَنَا»

الليلُ يسألُ من أنا ؟!!
أنا سرُّهُ القَلِقُ العميقُ الأسودُ !!
أنا صمتُهُ المُتمرِّدُ !!
قنَّعتُ كُنْهِى بالسُّكونْ

ولفقتُ قلبى بالظُّنُونْ
وبقيتُ ساهمةً هُنا
أرنو وتسألنى القُرُونْ
أنا من أكون ؟!!
والرِّيحُ تسأل من أنا ؟!!
أنا روحُها الحيران أنكرنى الزَّمانْ !!
أنا مثلها فى لا مكانْ !!
نبقى نسيرُ ولا انتهاءْ
نبقى نمرُّ ولا بقاءْ
فإذا بلغنا المُنْحَنى
خلناهُ خاتمةَ الشَّقاءْ
فإذا فضاءْ !!
والدهرُ يسألُ من أنا ؟!!
أنا مثلهُ جبَّارةٌ أطوى عُصُورْ
وأعودُ أمنحُها النُّشورْ
أنا أخلقُ الماضى البعيدْ
من فتنةِ الأمل الرَّغيدْ
وأعودُ أدفنُهُ أنا
لأصوغَ لى أمساً جديدْ

غَدُهُ جليد

والذَّاتُ تسألُ من أنا ؟!!

أنا مثلها حيرَى أُحدِّقُ فى ظلامْ

لا شىءَ يمنحُنى السَّلامْ

أَبقى أُسائلُ والجوابْ

سيظَلُّ يحجُبُه سرابْ !!

وأظلُّ أحسبُهُ دنا

فإذا وصلتُ إليه ذابْ !!

وخبا... ؛ وغابْ !!

.....

ـ مَقْصِد :

۞ ـ أَدُونِيس ... وَالإِبْدَاعُ الحَدَاثِىُّ الجَدِيد

ـ مظاهر الغموض فى شعر أدونيس (١)

ـ مسيرة أدونيس الشعريَّة

---

(١) ـ مُسْتَفَادَةٌ هَذِهِ المَقَالَةُ ـ بِاخْتِصَارٍ ـ مِن : منتديات تخاطب.ta٥atub.com

وَسَنُنَبِّهُ عَلَى نِهَايَتِهَا عِنْدَ الفَرَاغِ مِمَّا نُرِيد .

تُغطِّى مسيرة أدونيس ما يُنوِّف على ثلاثة عُـقُود ؛ أى مُنْـذُ صـدور ديوانـه الأول « قصائد أولى » عام ١٩٥٧م إلى يومنـا هـذا ؛ وخلال هـذه المسيرة طـرأت تغيُّـرات شملـت اللغـة والـصور والتراكيـب الـشعريَّة عنـده ؛ ففى قصائده الأولى غنائيَّةٌ بسيطةٌ وصورٌ مُفـردةٌ رُومانـسيَّةٌ وغيـر مُركَّبـةٍ ؛ وفى ديوانه الثانى أظهرت بعض قصائده ميلاً تدريجيًّاً نحو العبارة الشعريَّة المُعقَّدة ذات الأبعاد المُتعدِّدة ؛ وديوانه الثالث « أغانى مهيار الدمشقىّ » الصادر عام ١٩٦١م : يظهر أن أدونيس قد وجد صوته الخاص المُتميِّز فى الشعر العربىِّ الحديث : فالصور ـ هُـنَا ـ مُعقَّدة ؛ واللغة الشعريَّة مُنتقـاةٌ بدقَّـةٍ ؛ وأكثر مـن هذا : الرُّؤية الشُّموليَّة ؛ إضافة إلى التعقيد والغموض فى بعض النَّـواحى ؛ ويتطور هذا الأسلوب ويستمر فى ديوانه الرابع « كتاب التحولات والهجرة فـى أقـاليم النهـار والليـل » الـصادر عـام ١٩٦٥م ؛ وفـى ديوانـه الخـامس « المسرح والمرايا » الصادر عام ١٩٧٠ م على ثلاث قصائد طُوال ؛ تُـمَثِّل ما أسماه بـ « القصيدة الكُلِّيَّة » ؛ وشعره هُنَـا : عـالمٌ مـن التعدديـَّة والتنـوع ؛ والرُّؤية الشُّموليَّة ؛ ومزيج بين الخاص والعام ؛ وفى القصيدة الكُلِّيَّة يخـرج أدونيس كُلِّيـاً عن المفهوم التقليدىِّ للشعر ؛ ويُداخل بين ما يُعتبر نثراً بالمفهوم التقليدىِّ وما يُعتبر شعراً ؛ وكذلك يجد الدارس أكثر من وزنٍ شعرىٍّ أو أكثر من نوعٍ واحدٍ من التفعيلات الشعريَّة فـى القـصيدة الواحـدة ؛ أما ديـوانهُ السابع « مُفْرَدٌ بصيغة الجمع » الصادر عام ١٩٧٥م : يتكون مـن قـصيدةٍ

واحدةٍ طويلةٍ جدًّا ؛ تنقسم إلى أربعة أقسام ؛ وَكُلُّ قسمٍ يتجزأ إلى أجزاءٍ أصغر ؛ وأعتقد أن أدونيس قد حاول أن يجعل من قصيدته المُعقَّدة هذه : رائعة مشهورة ؛ فالنَّصُّ نسيجٌ مُعَقَّدٌ من المعانى المُتناقضة : فنجد الانسجام والتمرُّد ؛ الموت والولادة ... ؛ إنها نُموذجٌ مُمَثِّلٌ لعالم أدونيس .

إن أدونيس ـ باختصارٍ ـ : يُحاول أن يستعيض عن المفاهيم التقليديَّة للشِّعْرِ والنثر : من أجل أن تُبنى طريقةٌ فى « الكتابة » : هذه الكتابة التى تُعالج بطريقةٍ أو بأُخرى تصوره عن الحداثة ؛ فالحداثة تعنى عنده : التمرُّد على ما هو سائدٌ واتباعىٌّ ؛ وتوكيدٌ على الفرادة والخصوصيَّة ؛ ولهذا نجد قصائده قد مالت تدريجياً نحو العبارة الغامضة ذات الأبعاد المُتعدِّدة .

يقول :

سيدتى أنا اسمى التجدُّد

أنا اسمى الغد

الغد الذى يقترب

كما أن الإبداع عنده : دُخُولٌ فى المجهول لا فى المعلوم ؛ وربما كون هذه « العتمة » التى يحب أن يبقى فى سِرِّهَا هى هذا المجهول الذى يُعَدُّ الدخول فيه إبداعاً أو ملحماً حداثيًّا :

فى عدمة الأشياء فى سِرِّهَا

أحب أن أبقى

أحب أن أستبطن الخلقا
أحب أن أشود كالظنِّ
كغربة الفنِّ
كالمبهم الغفل وغير الأكيد
أولد فى كل غدٍ من جديد

ورفض الحداثة العنيف للماضى هو ـ فى وجه الآخر ـ : تمرُّدٌ عليه وهدمٌ له ؛ وهذا ما يتبنَّاه أدونيس حين يود الحياة فى الغموض ؛ ويرى الموت فى الوضـــــوح .

وفى هذا السياق يقول :

أتــغـيَّـر
أغير ما يغيرنى غامضاً ؛ حيث الغموض أن تحيا
وضوحاً ؛ حيث الوضوح أن تموت

ـ اللغة الشعرية عند أدونيس

إذا كانت اللغة الشعريَّة الحديثة لا تتحقق إلا بتجاوز المألوف والعادىِّ فى اللغة ؛ فإن كثرة الإنزياحات عن الثوابت اللغويَّة يحُيل الخطاب الشعرىَّ إِلَى خطابٍ غامضٍ غير مفهوم :

عَرَّافٌ ... ؛ قُل
لا شىء

هذا مخبز اللغة العجينة

لا شىء

تاريخ النساء مخدة

وحنان طينه

فأدونيس يرى للغة مخبز فيه يخلق لغته الخاصة ((هذا مخبز اللغة العجينة)) إشارة إلى إعادة تشكيل اللغة وفق مُعطيات العصر لا مُعطيات التاريخ ؛ ومن ثَمَّ تُصْبِح كتابة القصيدة هدماً للغة وإحياءً لها فى وقتٍ واحدٍ ؛ وهذا ما لم يتعوَّد عليه القارئ ؛ فتبدو له اللغة ((الأدونيسيَّة)) لغة غامضة معقدة ؛ ومن المرتكزات الأساسيَّة المحدثة فى الخطاب الشعرىِّ المعاصر كسره لنمطيَّة اللغة ؛ واستحداثه لغة شعريَّة جديدة تتمرَّد على القوالب التى لاكتها الألسنة حتى أصبحت فارغة من مضامينها الحقيقيَّة ؛ فاللغة الشعريَّة إحساسٌ ووعىٌ مقصودٌ لذاته ؛ إنها تفرض نفسها باعتبارها أداة فوق الرسالة التى تتضمنها وأعلى منها ؛ ومن ثَمَّ فلا تُصبح الألفاظ مجرد وسائل لنقل الأفكار ؛ بل أشياء مطلوبة لذواتها ؛ وعلى هذا تتحول الكلمات من دوالٍ إلى مدلولات .

إن لغة الشعر الحداثىِّ ليست لوحاً زجاجيَّاً نقيَّاً يظهر ما تحته ؛ ليست لغة شفَّافةً تشف المعنى : وإنما هى إيمانيَّةٌ إشاريَّةٌ تُومئ إلى المعنى وتُشير إليه ؛ وهى هكذا عند شعراء الحداثة العربيَّة المعاصرة .

يقول أدونيس فى قصيدته ((الإشارة)) :

مزجت بين النار والثلوج
لن تفهم النيران غاياتى ولا الثلوج
وسوف أبقى غامضاً أليفاً
أسكن فى الأزهار والحجارة
أغيب
أستقصى
أرى... ؛ أموج
كالضوء بين السحر والإشارة

وفى هذا « السحر ؛ والإشارة » - إذ لا بوح ولا تصريح - : تكمن وظيفتها وهذا مصدر غموضها ؛ فأدونيس يرى اللغة الشعريَّة التقليديَّة سجناً ضيِّقاً : يتلمَّس التحرُّر منه ويتحرَّاه من خلال قوله :

كيف أحرر أجنحتى التى تنتحب فى
أقفاص اللغة

ثم هو يراها لغة الأنقاض والميتين !!... ؛ ثم يودعها بقوله :

قلنا لك الوداع من سنين
يا هالة الملائك الميتين
يا لغة الجراد الهاربة
يا لغة الأنقاض

هذا هو موقف أدونيس ـ شاعراً حداثيّاً ـ من اللغة الشعريَّة التقليديَّة التى ودَّعها من سنين لأجل خلق لغة خاصة به إيمائيَّة مُوحية ؛ فهو يستعمل المفردات بطريقة جديدة كلياً ؛ همه الأول أن يعطى هذه المفردات معانى جديدة مختلفة كلياً عن معانيها الموروثة ؛ وبالإضافة إلى ذلك فهو متأثر بالمعجم الصوفىِّ ؛ ويظهر جلياً فى ديوانه « كتاب التحولات » ؛ فتأثير النَّفَرِّى واضحٌ فى شعر أدونيس ؛ فأدونيس مثل النفرى : يستخدم الأدوات والحروف بطريقة خاصة وربما غريبة ؛ والتشابهات عند الاثنين فى بعض المواقع تثير الدهشة !! .

يقول النفرىُّ فى « موقف النور » :

وقال أيها النور انقبض وانبسط ... ؛ انطو وانفتح ... ؛ اختف واظهر ... :

فانقبض وانبسط ... ؛ وانطوى وانفتح ... ؛ واختفى وظهر .

ونجد أدونيس يقول فى « كتاب التحولات » :

وقلتُ : أيها الجسد انقبض وانبسط ... ؛ واظهر واختف ... :

فانقبض وانبسط ... ؛ وظهر واختفى .

فالغموض هنا راجع للغة الشعريَّة الذى يود أدونيس أن يجعلها تقول ما لم تتعلم أن تقوله .

ـ الصورة الشعرية الغامضة

إذا كان ذوق العصر قد أظهر ميلاً إلى الشعر غير المألوف لما فيه من إذكاءٍ

للغرابة ومواجهةٍ لأغوار الذات الغامضة ؛ فقد تأثرت الصورة بهذا فى خصائصها وكُنه علائقها ؛ لا يصلح المنطق أو العقل حكماً على دلالات هذه الصور وارتباطاتها ؛ لأنهما سينبذانها منذ الولهة الأولى ؛ وهذا ما يتبدَّى لنا من خلال هذه الأبيات :

أومأ لى برق بكى ونام
فى غابة الظنون
يجهل من أكون
يجهل أنى سيد الظلام
نام على يدى

فالمرجع أنه بقدر ما يعتمد الشاعر فى رسم صوره على العقل الباطن : تأتى هذه الصور غريبة محتشدة متنافرة الأجزاء .

لنقرأ مثلاً هذه الأبيات لأدونيس :

تجلس الكآبة على كُرسىٍّ يسع الهواء والتُّراب
ويجرى دم الولادة فى حوض تحرسه الشجرة العانس
هكذا
أتحول إلى بحيرة ... ؛ تنبجس من البحيرة نارٌ تُضىء لها

فعلاقات الصورة هنا دقيقة متباعدة إلى حد التنافر والتناقض ؛ صحيحٌ أنه من الممكن تجنيس أطرافها لينزاح شىء من إبهامها ؛ ولنستقطر بعضاً من

أوجه دلالاتها : لكن ذلك لا يتم إلا من خلال جهدٍ تأويلىٍّ مُضنٍ ليس على القارئ العادىِّ فحسب ؛ وإنما على قارئ الشعر أيضاً !!

وإذا قرأنا هذه الأبيات لأدونيس :

كأنما تستنطق الصاعقة الحجار

تحاكم الصاعقة السماء

تحكـم الأشـيـاء

كأنما يغتسل التاريخ فى عينى

وتسقط الأيَّام فى يـدى

تسقـط كالثمـار

ألفينا الصورة فيها : متباعدة الأطراف ؛ مبهمة العلاقات !! : فكيف يمكن للصاعقة أن تستنطق الحجار وتحاكم السماء ؟!! ؛ وكيف يغتسل التاريخ ؟!! ؛ لا ندرى تماماً ؛ لكن ما نرجحه : هو أن أدونيس كغيره من شعراء الحداثة أراد أن يفجر دلالات جديدة من خلال هذا الانفجار المجازىِّ ؛ الذى أراد به أيضاً تجاوز الروابط القديمة بين الأشياء إلى روابط يستعين على إيجادها بجسده ورؤياه وانفعاله الذاتىِّ وليس بالواقع الخارجىِّ فقط .

ـ الأسطورة عند أدونيس

لقد ساهم المنهج الأُسطوريُّ عند شعراء الحداثة فى إصابة شعرهم بالغموض ؛ وما لم يكن القارئ عالماً بهذه الأساطير أو مُلمَّاً بها على الأقل : سيكون شعر الحداثة عنده غامضاً ؛ وسيقف أمامه حائراً مُرتبكاً ؛ ورافضاً فى

بعـض الأحيـان .

لنقرأ هذه الأبيات :

فينيـــق !! ... ؛ يـا فينيـــق !!

يا طائر الحنين والحريق !!

يـا ريـشة

سحابة وراءها الظلام والبريق

هذه أبياتٌ من قصيدة ((البعث والرماد)) : استدعى فيها الشاعر أسطورة طائر ((الفينيق)) الذى يحترق لينبعث هو أو طائرٌ آخرٌ من رماده ؛ والواضح أن توظيف الأسطورة هنا أضفى على الأبيات غموضاً دلاليًّاً لا يُمكن أن ينكشف إلا لمن يعرفون هذه الأسطورة .

وهى قصيدةٌ تعالج فكرة البعث بعد الموت ـ كما يُوحى بذلك عنوانها ـ ؛ ومن الحق أن عالم الأسطورة بطبيعته عالمٌ غامضٌ مُبهمٌ يعتمد فى أحد أبعاده على الرمز والإيحاء ؛ ولهذا فالاتكاء شعريًّاً على هذا العالم لابُدَّ أن يصيب الشعر بشىءٍ من طبيعته فيكون غامضاً رامزاً مثله .

يقول أدونيس فى قصيدته ((ملك مهيار)) :

مـلـــك مهـيـــار

ملك والحلم لع قصر وحدائق نار

واليوم شكاه للكلمات

صـــوت مـــات

ملـــك مهيـــــار

يحيا فى ملكوت الريح

فأدونيس يتخذ من شخصيَّة ((مهيار الديلمىّ)) قناعاً له ؛ لكنه فى استخدامه لهذه الأسطورة : يطرح كثيراً من تفاصيلها ؛ ويبتعد عن دلالاتها القديمة ؛ ويطور هذه الأسطورة لتنتقل التجربة من مستواها الشخصىِّ إلى مستواها الإنـــسانىِّ .

وبهذا يبعد الأسطورة ذاتها عن أن تكون صورة عقلية جامدة .

ويتابع أدونيس توظيفه لهذه الأساطير التى يجعلها وعاءً يحمل همومه وأفكاره الخاصة ... ؛ يقول :

أقسمت أن أكتب فوق الماء

أقسمت أن أحمل مع سيزيف

صخـــرتـه الصـمـــــاء

أقسمت أن أظل مع سيزيف

أخضـــع للحمى وللشـــرار

ففى هذه الأبيات يعطى الشاعر صورة لصراع ومعاناة الإنسان ؛ ويقسم على تحمل هذه المعاناة (الصخرة) مع سيزيف : تلك الشخصية الأسطورية التى عاقبتها الآلهة بحمل الصخرة إلى أعلى الجبل ؛ فتسقط منها ثم تعيد حملها ؛

فالقارئ ما لم يكن مُلمَّاً بهذه الأساطير فلن يدرك مغزى القصيدة ؛ وهكذا .

ـ الرمز عند أدونيس

ليست الفكرة الواضحة ؛ ولا الشعور الواضح المُحدَّد ؛ ولا نقل الأخبار : هى غاية الشعر المعاصر ؛ بل غايته ـ أو إحدى غاياته ـ : هى غموض الأحاسيس وتصوير الحالات النفسيَّة الغامضة بما يشاكلها من تعبير غامض .

لنقرأ مثلاً هذه الأبيات :

هذا أنا : لا لست من عصر الأفول

أنا ساعة الهتك العظيم أتت وخلخلة العقول

هـذا أنـا ـ عبـرت سحـابـة

حبلـى بزوبـعـة الجنـون

ففكرة الجنون تُمثِّل عند أدونيس : أعلى مستويات الثورة الحقيقية ؛ وهى فكرة تتكرر كثيراً فى شعر أدونيس ؛ فالجنون عنده رمز للثورة ؛ فالقارئ بطبيعة الحال لن يفهم دلالة هذه المقاطع حتى يكون مُلمَّاً برموز أدونيس .

ويجد أدونيس فى الرمز أداة مثالية للتعبير عن مكوناته وهمومه ؛ فهو يكثر من توظيفه إرباك القارئ وإثارته وجعله يساهم فى إعادة كتابة النص الشعرىِّ .

لنتأمل هذه الأبيات :

هل قلت إنـك شـاعـرٌ ؟

من أين جئت ؟ أحس جلدك ناعماً
سيَّـاف تسمعنـــى ؟
وهبتـــك رأســـــه
خذه ... ؛ وهات الجلد واحذر أن يمس
الجلد أشهى لى وأغلى

فهذه الأبيات عبارة عن أسئلة متتابعة تبدو أمام القارئ لأول برهة غامضة ؛ تثير الدهشة ؛ لكنه بمجرد تفكيك رموزها يجدها تحيل إلى حقيقة مريرة : تتجلى فى القمع والاستبداد السياسىِّ الذى رمز له الشاعر بهذه الكلمات « سيَّاف ـ وهبتك رأسه ـ هات الجلد ـ الجلد أشهى لى وأغلى » .

ـ الإِيقَاع ... ؛ عِنْدَ أَدُونِيس

لم يقتصر غموض الشعر على مضمونه فقط ؛ بل تجاوز ذلك إلى شكل وإيقاع القصيدة التى أجَّجَت من هذا الغموض وأربكت قارئ الشعر الحـــداثىِّ .

لنتوقف مثلاً عند المقطع الشعرىِّ :

كان هُناك سريرٌ ينتظرنى ؛ يجلس عند رأسه طيفٌ ينهض كالثدى ؛ ويلبسُ عجيزة وصدراً وما تبقى ؛ واستيقظ جسدى ؛ وهوى أسير المسام وخواتم العين والسرة والطبيعة الثانية التى تتناسل فيها أنواع ثانية من الخشخاش واللفاح وسواهما عن نباتات الذكورة والأنوثة ؛ وأخذ جلدى يتهيَّأُ لسقوط

كوكـــب آخـــر فـــى تجاعيـــده .

إننا أمام بنية صوتية إيقاعية واضحة ؛ مثلما نحن مع بنية الشعر العمودىِّ ؛ ولسنا إزاء قافية مستمرة تنهى السطر الشعرىَّ إيقاعاً ودلاليًّاً.

نحن أمام بنية تعتمد وحدة التفعيلة لا وحدة البيت ؛ كما أن هـذه التفعيلـة تنشطر بين أسطر القصيدة بسبب التدوير ؛ نحن أمام تدفق إيقاعىٍّ يعنى فى الوقت نفسه تدفقاً دلاليًّاً ؛ ومع التدفق التراكم والاختلاط والالتباس .

ولنقـرأ مـثلاً هـذه الأبيـات لأدونـيس :

أعرف أننى فى شرخ الموت ... ؛ أتبطن القبر وأخنخن كلماتى ... ؛ لكننى حىٌّ ـ يعـــرف هـــذا غيـــرى ـ : أهجم وأستأصل ... ؛ أعبر وأزدرى ... ؛ حيث أعـبر يـسقط شـلال عـالم آخر ؛ وحيـث أعبـــر المـــوت واللامـــمـــر ؛ وسأبقـــى ... ؛ فأنـــا مسيـــحٌ بنفـســـــى !! .

فنحن أمام مقطع شعرىٍّ أو جملة شعريَّة تتدفق دلاليًّاً بتدفقها إيقاعيًّاً ؛ لكن فى هذا التدفق متاهة دلاليَّة ؛ كأن المتلقى انتقل من شىءٍ ألفه وأنس إليه إلى آخر لم يعهده ؛ فغمضت دلالته بسبب غموض شكله ؛ من هُنا يصبح هذا التحول الجزئىُّ فى شكل الشعر ـ وتحديداً فى بنيته الإيقاعية ـ ؛ وإلى جانب هذا التدفق الإيقاعىِّ هناك ما يسمى بظاهرة الغياب ((الترقيمىّ)) هـذه ؛ وهى ظاهرة تُظهر القصيدة متسارعة لاهثة بسبب تسارع دوالها وتلاحقها غير الملجوم بعلامات الترقيم ؛ وربما يكون فى ربـط هـذا بتـسارع العـصر إبهام البنية اللغوية للقصيدة وإبهام بنيتها الدلالية فى ولهاثه ؛ لكنه يُسهم فى

الوقت نفسه .

لنقرأ مثلاً قول أدونيس من قصيدته:

« هذا هو اسمى

تحيل النار أيامى نار أنثى دم تحت نهديها صليل

والإبط آبار جمع مع نهر تائه وتلتصق الشمس عليها كالثوب

تزلق جرح قرعته وشعشعته بباه وبهار ؛ هذا جنينك ؟

أحزانى ورد . » .

فهو مقطع خلا معظمه من علامات الترقيم : مما أوقع التباساً فى تعالقه اللغوىِّ ؛ وهيَّأ لعِدَّة احتمالات أو صياغات قرائيَّة تختلف فيها إحالات الضمائر والتعالقات النحويَّة .(١).

.....

ـ مَقْصِد :

وَمُنْذُ أَشْهُرٍ : خَرَجَ الشَّاعِرُ وَالنَّاقِدُ الشَّاب مُحَمَّد محمُود دَحْرُوج الشَّهِيرُ بِـ « نِزَار شَاهِين المِصْرِىّ » : بِنَظَرِيَّةٍ شِعْرِيَّةٍ جَدِيدَةٍ ؛ وَأَيَّدَهَا بِنَمَاذِجِهِ التَّطْبِيقِيَّةِ الخَاصَّة ـ أَى أَشْعَارُهُ وَقَصَائِدُه ـ ؛ وَهَاهِىَ ذِى مَقَالَتُهُ الَّتِى نَشَرَهَا بِكِتَابِهِ :

﴿ النـقْـدُ الأَدَبِـىُّ

(١) ـ هَاهُنَا انْتَهَى مَا أَرَدْنَاهُ مِن هَذِهِ المَقَالَة .

نَشْأَتُهُ وَمَنَابِعُه ... مَدَارِسُهُ وَمَذَاهِبُه
أُصُولُهُ وَمَصَادِرُه ... نَظَرِيَّاتُهُ وَمَنَاهِجُه.

وَيَلِيه :

نَظَرِيَّةُ الشِّعْرِ الصَّوْتِىِّ
إِطْلالَةٌ تَأْرِيخِيَّةٌ تَأْصِلِيَّةٌ نَقْدِيَّة
وَرُؤْيَةٌ تَنْظِيرِيَّةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ إِبْدَاعِيَّة
« نَحْوَ خَلْقِ نَظَرِيَّةٍ شِعْرِيَّةٍ حَدَاثِيَّة » . » .

قَال :

« نَظَرِيَّةُ الشِّعْرِ الصَّوْتِىِّ »
الأَدَاءُ اللُّغَوِىُّ ... المُوسِيقَى الشِّعْرِيَّة

١ـ الأَدَاءُ اللُّغَوِىُّ :

نِسْتَطِيعُ أَن نَصِلَ إِلَى المُرَادِ مِن وَرَاءِ شَرِيطَةِ البِنْيَةِ اللُّغَوِيَّةِ الشِّعْرِيَّة ؛ مِن خِلالِ تَأَمُّلِ مَا سَلَفَ مِن عَرْضٍ لِمَنَاهِجِ الأَئِمَّةِ المُتَقَدِّمِين... ؛ وَالَّتِى تَتَمَثَّلُ فِى :

أ ـ جَزَالَةُ الأَلْفَاظ : أَى الأَلْفَاظِ العَرَبِيَّةِ القَوِيَّةِ المُعَبِّرَةِ مِن جِهَةٍ.

ب ـ سَلاسَةُ الأَلْفَاظِ مِن جِهَةٍ أُخْرَى ؛ وَمُوافَقَتُهَا لِطَبِيعَةِ الفُحُولَةِ اللُّغَوِيَّةِ المُعَاصِرَة.

أَى أَنَّنَا نُرِيدُ الأَلْفَاظَ الَّتِى يَشْعُرُ الأَدِيبُ بِأَنَّهَا مَا خَرَجَت إِلاَّ مِن مَعِينِ شَاعِرٍ امْتَلأَ بِأَسَالِيبِ وَعِبَارَاتِ أَرْبَابِ البَيَانِ وَالبَلاغَة... ؛ وَكَذَلِكَ فَهِىَ أَلْفَاظٌ لا

تَحْتَاجُ - لِكَوْنِهَا مِنَ الحُوشِيِّ الغَرِيب ؛ أَو مِن تِلْكَ الأَلْفَاظِ النَّادِرَةِ الاسْتِعْمَالِ مَعَ التَّسْلِيمِ بِأَصَالَةِ عَرَبِيَّتِهَا - إِلَى الرُّجُوعِ لِلمَعَاجِمِ العَرَبِيَّةِ لِلوقُوفِ عَلَى حَقِيقَةِ كُنْهِهَا... ؛ وَلا عَلاقَةَ بَيْنَ الأَلْفَاظِ الَّتِي نُرِيدُهَا هُنَا ؛ وَبَيْنَ الأَلْفَاظِ المُبْتَذَلَةِ السَّاقِطَةِ الَّتِي تَسْفُلُ بِصَاحِبِهَا وَتَحُطُّ مِن قَدْرِ فُحُولَتِهِ اللُّغَوِيَّة.

٢ - مُوسِيقَى الشِّعْرِ الصَّوْتِيّ

لِهَذَا النَّمَطِ الشِّعْرِيِّ مُوسِيقَاهُ الَّتِي يَنْمَازُ بِهَا وَيَعْتَمِدُ وَيُعَوِّلُ عَلَيْهَا... ؛ وَهِيَ مَنَاطُ الخِلافِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَنْصَارِ الجُمُودِ وَالتَّزَمُّت... ؛ وَهَذِهِ هِيَ رَكَائِزُهَا :

أ - الاعْتِمَادُ عَلَى التَّفْعِيلَةِ الوَاحِدَةِ فِي بَعْضِ المَقَاطِعِ وَالفِقَر.

ب - دَمْجُ تَفْعِيلَةِ بَحْرٍ مَعَ تَفْعِيلَةِ بَحْرٍ آخَر.

ج - الصِّيَاغَةُ الحُرَّةُ الَّتِي لا تَعْتَمِدُ عَلَى التَّفْعِيلَةِ العَرُوضِيَّة.

د - السَّكَتَاتُ اللَّطِيفَةُ وَالجَلِيَّةُ [... ؛] ؛ [!!... ؛] ؛ [!!؟... ؛] ؛ وَالَّتِي مِن شَأْنِهَا أَن تُشْعِرَ بِالسَّلاسَةِ وَالمُرُونَةِ وَعَدَمِ الدَّمْجِ العَرُوضِيِّ وَالشُّذُوذِ المُوسِيقِيِّ.

وَيَكَادُ أَن يَكُونَ هَذَا الشَّرْطُ هُوَ المِحْوَرُ الَّذِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ وَتَدُورُ حَوْلَهُ... ؛ وَبِدُونِهِ تَنْتَفِي قِيمَةُ كُلِّ هَذِهِ الشُّرُوطِ السَّابِقَة .

❁ ـ النَّمَاذِجُ المُنْتَقَاةُ مِن أَشْعَار نِـزَار شَـاهِين :

١ـ مَا بَيْنَ بَدْئِى !!... وَالخِتَام؟!!

مَا بَيْنَ بَدْئِى وَالخِتَام؟!!... ؛ أَقَاصِيصٌ... ؛ رِوَايَاتٌ... ؛ حِكَايَاتُ... ؛ فَهُنَاكَ مَن ذَهَبُوا!! ... ؛ وَمَن فُقِدُوا!! ... ؛ وَمَن مَاتُوا !!... ؛ وَبَقِيتُ وَحْدِى فِى الأَخِيرِ!! ... ؛ رُوحٌ تَجُوبُ هُنَاكَ فِى التِّيهِ الكَبِيرِ!! ... ؛ أَمَلٌ تَحَوَّلَ يَا صَدِيقِى إِلَى رَمَادِ!! ... ؛ مَا عُدْتُ أَعْرِفُ يَا أَخِى !! ... ؛ مَعْنَى السَّفَاهَةِ وَالرَّشَادِ؟!! ... ؛ أَشْلاءُ أَحْلامٍ!! ... ؛ أَشْلاءُ أَحْلامٍ أُمِيتَت فِى الخَرِيف !!... ؛ لا فَرْقَ بَعْدَ اليَوْمِ!! ... ؛ مَن غَصَبَ الهُدَى (١)!!... ؛ وَمَنِ العَفِيف !!... ؛ لا فَرْقَ بَيْنَ الشَّيْخِ عَرْبَدَ فِى المَقَايِحِ وَالمَثَالِبِ لا يَثُوبُ(٢) وَلا يَفِيق!! ... ؛ أَو بَيْنَ طِفْلٍ بَاسِمٍ فِى وَسْطِ لَيْلٍ !!... ؛ قَد تَهَشَّمَ رَأْسُهُ فَوْقَ الطَّرِيق !! ... ؛ يَا سَيِّدِى !! ... ؛ كُلُّ الحَقَائِقِ قَد هَوَت!!... ؛ كُلُّ العُقُولِ هُنَاكَ فِى زَمَنِ الرَّذَائِلِ وَالمَخَازِى قَد غَوَت!!... ؛ وَلِذَاكَ دَعْنِى فَإِنَّنِى!!... ؛ وَلِذَاكَ دَعْنِى فَإِنَّنِى سَأَسِيرُ وَحْدِى فِى المَدَائِنِ وَالدُّرُوب !!.. ؛ أَقْتَاتُ مَعْنَى الحُزْنِ فِى لَيْلِ المَآسِى!!... ؛ وَالخُطُوب !!... ؛ أَمْضِى كَمَلاَّحٍ !!... ؛ أَمْضِى كَمَلاَّحٍ تُطَارِدُهُ رِيَاحُ القَهْرِ فِى بَحْرِ الضَّيَاع !!... ؛ أَمْضِى كَعَبْدٍ مِلْكَ نَخَّاسٍ يَعِيشُ مَصِيرُهُ أَن يُشْتَرَى أَو أَن يُبَاع !!... ؛ أَنَا قَد كَفَرْتُ بِكُلِّ أَعْرَافِ الحَيَاه !!... ؛ لا فَرْقَ بَعْدَ اليَوْمِ عِنْدِى

---

(١) ـ فُلانٌ يَمْضِى عَلَى هُدَى : أَى عَلَى بَصِيرَةٍ.

(٢) ـ ثَابَ فُلانٌ إِلَى رَشَدِهِ : أَى عَادَ وَرَجِع.

بَيْنَ أَفْئِدَةِ المَلائِكِ وَالطُّغَاه !!... ؛ عُلِّمْتُ فِى يَوْمِى اللَّعِينِ حَقِيقَةً؟!!... ؛ الحَقُّ عِنْدَ النَّاسِ شَىْءٌ لا يُرَى إلاَّ سِوَاه ؟!!... ؛ دَعْ أَمْرَ قَلْبٍ أَو عُقُولٍ إِنَّهَا وَهْمٌ هُنَا !!... ؛ إِنَّ الشَّرِيعَةَ فِى زَمَانِى تَقِيسُ كُلٌّ حَسْبَ مَا مَلَكَت يَدَاه !!... ؛ وَلِذَا فَدَعْنِى لا تُمَهِّل إِى وَلا تَقُل انْتَظِر !!... ؛ سَأَعُودُ ثَانِيَةً لأَنْسَى الحُزْنَ فِى تِيهِ السَّفَر !!... ؛ سَيَقُولُ قَوْمِى ظَلَّ يَجْتَازُ الدُّرُوبَ لِكُلِّ أَزْمِنَةِ الحَيَاةِ وَلِلمُحَالِ قَد اخْتَرَق !!... ؛ ضَاعَت رُؤاهُ فَعَاشَ فِى وَهْمِ السَّرَابِ !!... ؛ هُنَاكَ فِى قَلْبِ الجَحِيمِ !!... ؛ قَد احْتَرق ... ؛ هَذَا أَنَا !!... ؛ هَذَا أَنَا !!... ؛ وَسْطَ الرِّيَاح!! ... ؛ رُوحٌ مَلِيئَةُ !!... ؛ بِالمَوَاجِعِ !!... ؛ وَالجِرَاح!!... ؛ وَغَداً هُنَاكَ القَبْرُ فِى طَرَفِ المَدِينَةِ سَاكِنٌ وَسْطَ الظَّلام!!... ؛ سَكَنَ الفُؤادُ فَلا رَجَاءَ هُنَاكَ لِلدُّنْيَا اللَّعِينَةِ لا مَلام!!... ؛ قَبْرٌ حَزِينٌ خَاشِعٌ!!... ؛ صُنِعَت حِجَارَتُهُ هُنَاكَ مِنَ الكَآبَةِ وَالدُّمُوع!!... ؛ فَإِذَا أَرَدتُوا الحُزْنَ يَوْمَاً عِنْدَهُ!!... ؛ فَابْكُوا وَلَكِن!!... ؛ فِى خُشُوع!!.

٢ـ سَأَلَتْنِى مَن؟!!

سَأَلَتْنِى مَن؟!! ... ؛ إِى أَنْتَ يَا ابْنَ الصَّمْتِ قُل ؟!!... ؛ قُل أَنْتَ مَن ؟!! ... ؛ فَخَجِلْتُ مِن عَجْزِى... ؛ وَلَم أَنْطِق... ؛ وَاهْتَزَّت الأَرْضُ الَّتِى حَمَلَتْنِى أَقْدَامِى عَلَيْهَا مِن سِنِين !! ... ؛ أَنَا مَن أَكُون ؟!!... ؛ فَلْتَسْأَلُوا عَنِّى دُرُوبَاً فِى ظَلامٍ لَم تَزَل ... ؛ فَلْتَسْأَلُوا عَنِّى بِأَوْدِيَةِ الحَيَارَى التَّائِهِين !!

قَالَت أَجِب !!... ؛ فَإِلَى مَتَى تَبْقَى بِحِصْنِكَ قَابِعَاً وَسْطَ السُّكُون ؟!!

... ؛ قَالَت أَجِب !!... ؛ مَا مِن فَتَىً !!... ؛ إِلاَّ وَيَعْرِفُ مَن يَكُون ؟!!

فَأَجَبْتُهَا : أَنَا شَاعِرٌ... ؛ أَنَا شَاعِرٌ أَوْطَانُهُ الوَهْمُ اللَّعِين ... ؛ إِرْثِى مِنَ الحِرْمَانِ وَالخَوْفِ المُفَزِّعِ وَالشَّجَن ... ؛ لِى ذِكْرَيَاتٌ !!... ؛ إِنَّمَا أَنَا فِى الحَقِيقَةِ لَسْتُ أَذْكُرُهَا... ؛ وَقَفَت هُنَاكَ بِخَلْفِ أَبْوَابِ الزَّمَن !!... ؛ قَد كَانَ لِى بِالأَمْسِ أَرْضٌ كُنْتُ أُبْصِرُهَا !!... ؛ اليَوْمَ مَا أَذْكُر سِوَى ... ؛ أَحْيَا بِلا أَرْضٍ بِلا أَهْلٍ بِلا حُبٍّ ... ؛ وَمَا عِنْدِى وَطَن !!... ؛ هَاذِى حَقِيقَةُ قِصَّتِى.

قَالَت فَمَا تَرْجُو ؟!!... ؛ وَمَا تَبْغِى بِسَعْيِكَ فِى بِلادٍ لَسْتَ تَعْرِفُهَا ؟!! ... ؛ وَلِمَا مَجِيئُكَ مِن دِيَارِكَ يَا تُرَى ؟!!... ؛ أَلَدَيْكَ أَحْلامٌ وَآمَالٌ وَأَفْكَارٌ ... ؛ وَشَىْءٌ مِن رُؤَى ؟!!.

فَأَجَبْتُهَا : أَنَا مَا أُؤَمِّلُ أَىَّ شَىْء !!... ؛ حُلْمِى البَقَاءُ بِدَيْرِ صَمْتِى لا أَعِيشُ بَعَالَمِ الأَحْقَادِ فِى دُنْيَا البَشَر... ؛ أَمَلِى مِنَ الدُّنْيَا اللَّعِينَةِ هُوْ سُكُونِى وَعُزْلَتِى ... ؛ مَحْضُ التَّنَائِى عَن مَدَائِنَ أَهْلُهَا صُنِعَت قُلُوبُهُمُ هُنَالِكَ مِن جَلامِيدِ

الصَّخَر !!... ؛ أَنَا لَيْسَ عِنْدِى مِن رُؤى ... ؛ أَنَا لَسْتُ أَعْبَأُ بِالأُمُورِ يَكُونُ مِنْهَا وَمَا جَرَى... ؛ مُتَشَابِهٌ ذَا المَوْتُ عِنْدِى وَالكَرَى... ؛ مُتَسَاوِيَانِ... ؛ مُتَسَاوِيَانِ السَّيْرُ فِى ظِلِّ النَّعِيمِ بِطُولِ سَاحَاتِ المَدَى... ؛ وَوُقُوفُ حَيْرَانٍ هُنَاكَ عَلَى شَوَاطِىءَ لا تَرَى غَيْرَ الرَّدَى !!.

فَأَجَبْتُهَا : لا تَسْأَلِى كَيْفَ المَجِىءُ وَأَنْتَ مَن ؟!!... ؛ أَنَا مَن أَكُون ؟!!... ؛ أَنَا مَحْضُ قَلْبٍ مَا عَلَى الأَرْضِ اطْمَأَن !! ... ؛ لا تَسْأَلِينِى مَا أُرِيد ... ؛ أَنَا جِئْتُ مِن مَاضٍ تَلاشَى وَهَا أَسِيرُ بِنَحْوِ مَرْهُوبٍ بَعِيد... ؛ لا تَسْأَلِينِى مَا الَّذِى قَد كَانَ فِى يَوْمِ الفِرَار ... ؛ يَوْمِ الخِيَانَاتِ الَّتِى مَاجَت بِهَا أَرْضِى هُنَاكَ بِوَسْطِ أَوْدِيَةِ الحِصَار ... ؛ أَنَا كُلُّ مَا أَذْكُر... ؛ أَنَا كُلُّ مَا أَذْكُر خُرُوجِى لاهِثًا خَوْفَ الغُدُوِّ كَجُثَّةٍ مَطْرُوحَةٍ كَانَت لِبَعْضِ رِفَاقِنَا... ؛ خَلَّفْتُهَا!!... ؛ خَلَّفْتُهَا نَهْبًا مُقَسَّمَةً لأَنْيَابِ النُّسُور... ؛ وَخَرَجْتُ تَحْتَ ظَلامِ لَيْلٍ رِحَابِهَا... ؛ وَتَرَكْتُهَا !!... ؛ وَتَرَكْتُهَا كَمَدِينَةٍ مَلْعُونَةٍ!!... ؛ ضَاعَت هُنَاكَ !! بِوَسْطِ مَجْهُولِ العُصُور.!!.

٣ـ النَّارُ فِى عَيْنِى!!... وَالسُّمُّ فِى رِيقِى!!

لا اليَأْسُ يَعْرِفُنِى ... ؛ وَلا أَعْرِفُ اليَأْسَا !!... ؛ أَنَا مَن قَهَرْتُ الذُّلَّ وَالتُّعْسَا !! ... ؛ لا الحُزْنُ يَهْزِمُنِى وَلا ضِيقِى !!.... ؛ النَّارُ فِى عَيْنِى !!.... ؛ وَالسُّمُّ فِى رِيقِى !!... ؛ مَاتَت حِكَايَاتِى وَتَشَعَّبَت طُرُقِى !!... ؛ سَأَعِيشُ سِرِّىَ فِى طُهْرِى وَفِى صِدْقِى !!... ؛ لا الكَوْنُ يَأْسِرُنِى وَلا الأَرْضُ !!... ؛ فَالحُبُّ يَعْرِفُهُ الإِحْسَاسُ وَالنَّبْضُ !!... ؛ أَنَا لا تُحَرِّكُنِى الصُّرُوفُ وَلا الخُطُوب !!... ؛ فَأَبِى بِيَوْمِ حِمَامِهِ قَالَ الرُّجُولَةُ لِلمَآسِى وَالكُرُوب !!... ؛ أُمِّى بِيَوْمِ وَفَاتِهَا قَالَت نِزَارُ ابْنُ الغَرَابَةِ وَالخَيَال !!... ؛ سَيَعِيشُ لا يَعْبَأ بِغَيْرِ السَّيْرِ فِى أَرْضِ المُحَال !!... ؛ سَأَظَلُّ أَبْسُمُ رَغْمَ أَحْزَانِى أُغَنِّى !!... ؛ سَأَمُوتُ يَوْمَاً إِنَّمَا !!... ؛ سَيُخَلِّدُ التَّارِيخُ فَنِّى !!.

ـ المَقَالَةُ السَّابِعَة :

.....

۞ ـ إِمَارَةُ الشِّعْرِ العَرَبِىِّ
عَبْقَرِيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ ... ؛ أَم مَحْضُ ادِّعَاءَاتٍ كَاذِبَة ؟!!

حِينَمَا أَجْمَعَ الشُّعَرَاءُ وَالنُّقَّادُ عَلَى وَضْعِ لِوَاءِ إِمَارَةِ الشِّعْرِ فِى يَدِ أَحْمَد شَوْقِى ؛ مَا كَانَ هَذَا إِجْمَاعاً حَقِيقِيّاً صَحِيحاً !! ... ؛ بَل الرَّاجِحُ أَنَّهُ كَانَت لِشَوْقِى يَدٌ خَفِيَّةٌ فِى صُنْعِ هَذِهِ المُبَايَعَة !!... ؛ ثُمَّ اخْتِرَاعُ دَعْوَى الإِجْمَاعِ بَعْدَ ذَلِك !!... ؛ ثُمَّ جَاءَ العَقَّادُ بَعْدَ ذَلِكَ لِيَحْظَى بِهَذَا اللَّقَبِ العَظِيم ... ؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ فَوْزَاً هُوَ بِالأُضْحُوكَةِ أَشْبَه !!... ؛ إِذ شَرْطُ الإِجْمَاعِ مَا تَوَافَرَ وَمَا وُجِد !! ... ؛ وَكَذَلِكَ فَإِنَّ عُنْصُرَ المُدَاهَنَةِ وَالتَّزَلُّفِ كَانَ هُوَ الأَظْهَرُ وَالأَبْرَزُ فِى هَذِهِ الحَادِثَةِ الشَّهِيرَة !!... ؛ وَمِمَّا يُجَلِّى حَقِيقَةَ هَذَا المَشْهَدِ التَّارِيخِىِّ العَبَثِىِّ : أَنَّ السَّاحَةَ كَانَت تَمُوجُ فِى هَذَا الآوِنَةِ بِشُعَرَاءٍ عَلَى جَانِبٍ كَبِيرٍ مِنَ القُوَّةِ وَالفُحُولَةِ ؛ ثُمَّ إِنَّ العَقَّاد مَا كَانَ إِبْدَاعُهُ الشِّعْرِىُّ يَوْمَئِذٍ ـ وَلا بَعْدَ صُدُورِ آخِرِ دَوَاوِينِهِ ـ يُؤَهِّلُهُ بِحَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ لِهَذَا المَنْصِبِ الرَّفِيع !!.

ثُمَّ جَاءَت صَافِينَاز كَاظِم بَعْدَ ذَلِكَ لِتُصَرِّحَ فِى جَرْأَةٍ بِأَنَّ الشَّاعِرَ أَمَل دُنْقُل : هُوَ أَمِيرُ شُعَرَاءِ العَصْر !!... ؛ وَالأَمْرُ هَاهُنَا أَدْهَى وَأَعْجَبُ مِن سَابِقِه !!... ؛ وَإِن تَعْجَب فَعَجَبٌ مِن كَوْنِ جَرِيدَة [A.B.C] المَدْرِيدِيَّةِ قَد أَتَت بَعْدَ ذَلِكَ لِتَنْشُرَ مَقَالاً ضَافِيَاً عَن الشَّاعِرِ العِرَاقِىِّ عَبْدِ الوَهَّابِ البَيَّاتِى ؛ ذُكِرَ فِى عُنْوَانِهِ أَنَّهُ :

﴿ الشَّاعِرُ الأَوَّلُ فِى الوَطَنِ العَرَبِىِّ ﴾ !!

.....

خُلاصَةُ القَوْل : هُنَاكَ مِنَ النُّقَّادِ مَن لا يَعْبَأُ بِمَسْأَلَةِ الإِمَارَةِ وَلا يَعْتَرِفُ بِهَا ... ؛ وَلِكَلامِهِ عِنْدِى نَصِيبٌ مِنَ الصِّدْقِ وَالحَقِّ... ؛ إِلاَّ أَنَّنِى لا أَرَى غَضَاضَةً مِن هَذَا الأَمْر ؛ شَرِيطَةَ أَن تَتَوَافَرَ الشُّرُوطُ وَالقَوَاعِدُ ؛ وَالَّتِى يَجِبُ قِيَامُهَا وَوُجُودُهَا إِذَا مَا أُرِيدَ ذَلِك ... ؛ وَالقَوَانِينُ الَّتِى تُشْتَرَطُ لا يَجْهَلُهَا مَن لَهُ فَهْمٌ وَإِدْرَكٌ ... ؛ كَوُقُوفِ أَشْهَرِ نُقَّادِ العَصْرِ عَلَى كَآفَّةِ النِّتَاجَاتِ الشِّعْرِيَّةِ ؛ وَخُرُوجِ العَامَّةِ وَالدَّهْمَاءِ مِنَ الإِدْلاءِ بِالرَّأْى ؛ لافْتِقَادِ العِلْمِ الكَامِلِ مِن جِهَةٍ ؛ وَالتَّحَيُّزِ وَالتَّعَصُّبِ مِن جِهَةٍ أُخْرَى ؛ وَأَن يَكُونَ الكَلامُ المَقْرُوءُ هُوَ الَّذِى يُعَوَّلُ عَلَيْهِ وَيُعْتَدُ بِهِ ؛ وَلا يُلْتَفَتُ إِلَى الأَدَاءِ الصَّوْتِىِّ لِلشَّاعِرِ ؛ اللَّهُمَّ إِلاَّ إِذَا أَرَدْنَا مَعْرِفَةَ دَرَجَةِ فَصَاحَتِهِ وَمَدَى اسْتِقَامَةِ لِسَانِهِ ... ؛ وَهَكَذَا ... ؛ وَأَمَّا مَا نَرَاهُ اليَوْمَ ؛ فَهُوَ مِن جِهَةِ الحَقِّ وَالمَوْضُوعِيَّة : فَلا هُوَ فِى العِيرِ وَلا فِى النَّفِير !!.